صفحات من أخبار
الأنبياء والعلماء والأولياء والحكماء
في

الصبر على الزوجات
والحلم عليهن

تأليف
يوسف أبجيك السوسي



دار الفتح
للدراسات والنشر

صفحات من أخبار
الأنبياء والعلماء والأولياء والحكماء
في

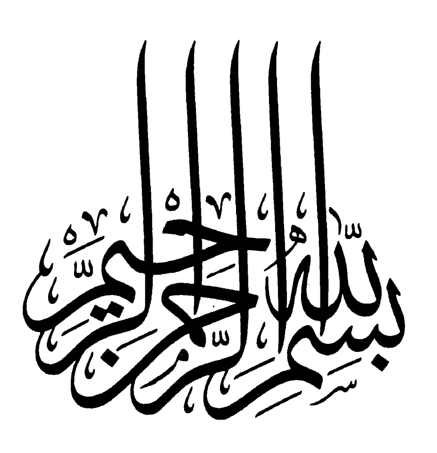
الصبر على الزوجات

والحلم عليهن

تأليف
يوسف أبجيك السوسي



دار الفتح
للدراسات والنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

صَفَحَاتٌ مِنْ أَخْبَارِ
الأَنْبِيَاءِ وَالعُلَمَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ وَالحُكَمَاءِ
فِي

الصَّبْرِ عَلَى الزَّوْجَاتِ

وَالحِلْمِ عَلَيْهِنَّ

صفحات من أخبار الأنبياء والعلماء والأولياء والحكماء في الصبر على الزوجات والحلم عليهن
تأليف : يوسف أبجيك السوسي
الطبعة الثانية: 1440هـ - 2019م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد©
قياس القطع : 17 × 24
الرقم المعياري الدولي : ISBN : 978-9957-61-333-4
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (2016/1/126)



دار الفتح للدراسات والنشر
هاتف: 4646199 6 (00962)
فاكس: 4646188 6 (00962)
جوال: 799038058 (00962)
ص.ب: 183479 عمّان 11118 الأردن
البريد الإلكتروني: info@daralfath.com
الموقع على الشبكة الإلكترونية: www.daralfath.com

مقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل في مُحكم التنزيل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:٣٩]، والصلاة والسلام على نبيه الكريم، ذو الخلق العظيم، سيدنا ومولانا محمد الهادي الأمين، الذي رغّب في الزواج وجعله مِن سُننته، وحضّ على حسن معاملة الأزواج وجعل ذلك معيارا للخيرية فقال: «خِياركم خياركم لنِسائهم»[1]، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الكرام الميامين.

أوصى الله تعالى في كتابه الكريم الأزْواج بحُسن عِشرة النسَاء، فقال جل شأنه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ثم رغّبَ بَعدَها في الصّبر عليهن، فقال جلّ سلطانه:﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩].

قال الإمام الآلوسي رحمه الله: «والمعنى: فإن كرهتموهن فاصبروا عليهنّ، ولا تُفارقوهن لكراهة الأنفس وحدَها، فلعلّ لكم فيما تكْرهونه ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾، فإن النفس رُبما تكره ما يُحمد، وتُحبّ ما هو بخلافه، فليكن مَطمح النظر ما فيه خير وصلاح دُون ما تهوى الأنفس، ونكّرَ ﴿شَيْئًا﴾ و﴿خَيْرًا﴾ ووصفه بما وصفه،

---

(١) رواه الترمذي في: سننه، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، وقال: حديث حسن صحيح. انظر: تهذيب جامع الإمام أبي عيسى الترمذي (٢ / ٤٨).

مبالغةً في الحمل على تركِ المفارقة وتعميماً للإرشاد، ولذا أستُدلّ بالآية على أنّ الطلاق مَكرُوه»(١).

ودَعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الزوجَ إلى النظر فيما لدَى زوجته مِن مَحاسنَ وصِفاتٍ كريمة غيرَ ما فيها مِمّا يَكرهُ.

روى الإمام مسلم في «صحيحه»، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَفْرَكْ مُومن مُومنة، إنْ كرهَ منها خُلقاً، رضيَ منها آخر»(٢).

أقوال العلماء في شرح الحديث:

١- قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرحه على «صحيح الإمام مسلم»: «الصواب أنه نَهْيٌ، أيْ ينبغي أن لا يُبغضها، لأنه إنْ وَجد فيها خُلقاً يُكره، وجد فيها خلقاً مَرضياً، بأن تكون شرسَة الخُلق لكنها ديّنة، أو جميلة، أو عفيفة، أو رفيقة به، أو نحو ذلك»(٣).

٢- وقال الإمام القُرطبي رحمه الله تعالى في «الجامع لأحكام القرآن»:

«المعنى: أي لا يُبغضها بُغضاً كلياً يَحمله على فراقها. أي لا ينبغي له ذلك، بل يغفر سيئتها لحسنتها، ويتغاضى عما يَكره لما يُحبّ»(٤).

٣- وقال الشيخ العلامة المحدث سيدي عبد العزيز بن الصدّيق

---

(١) روح المعاني (٤ / ٢٤٣).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٠ / ١٧٨٥ ح١٤٦٩)، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٠/ ١٧٨).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٩٨).

الغماري[١] رحمه الله تعالى في إحدى مقالاته: «يعني: لا يَحملهُ ظهور شيءٍ منَ الزوجة يُخالف المقصود أنْ يُبغضها ويُعاملها بغير الواجب في السّعي على ما يُديم المحبة والألفة، فإن كَرِهَ منها بعض ما يَصدُر منها، فلها مَحاسن أخرى يجبُ النظر إليها، فلذلك لا يتعجل إلى بُغضها من أجل عملٍ صدرَ منها»[٢].

وحِرصاً منه ﷺ على البيتِ المُسلم، لم يُشْرِعِ الباب لمُريد التّطليق، فقال عليه الصلاة والسلام مُرشدا أمّته ومُنبّها لها: «أبغضُ الحلال إلى الله الطلاق»[٣].

قال الإمام الصّنعاني رحمه الله في شرح هذا الحديث ما نصّه: «الحديث فيه دليل على أنّ في الحلال أشياء مَبغوضة إلى الله تعالى، وأن أبغضها الطلاق،

---

(١) هو الشيخ العلامة المحدث سيدي عبد العزيز بن الإمام العارف سيدي محمد بن الصديق الغماري، ولد بطنجة عام ١٣٣٨هـ/ ١٩١٨م، أخذ العلم عن: والده، وعن شقيقه الحافظ احمد بن الصديق وعن شقيقه العلامة عبد الله بن الصديق وعن علماء من المغرب ومصر وغيرهما من البلدان، وقد خلّف العديد من مؤلفات في مختلف الفنون، وكانت وفاته رحمه الله بطنجة سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م. ألف في ترجمة نفسه كتاب: تعريف المؤتسي بأحوال نفسي. كما تجد ترجمته في: التأليف ونهضته بالمغرب (ص ٣٧٢)، ذكريات من حياتي للشيخ عبد الله التليدي (ص ١٥٠)، صدّيقون للشيخ المختار محمد التمسماني (ص ١٥٤). وأفرده بالترجمة الشيخ عبد اللطيف جسوس بكتاب مطبوع عنونه: نجم من أعلام علماء السلف في علماء الخلف.

(٢) ما يجوز وما لا يجوز في الحياة الزوجية (ص ٢١٣).

(٣) الحديث عزاه الإمام السيوطي في الجامع الصغير (ص ١٠ ح ٥٣) لابن ماجه، والبيهقي، والحاكم، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وصحّحه. كما صححه أيضا الحاكم وأقرّه الذهبي، ووافقهم الحافظ أحمد بن الصديق الغماري في: المداوي (١/ ١٢٣ ح ٤١).

فيكون مجازاً عن كونه لا ثواب فيه، ولا قربة في فعله، ومَثل بعض العلماء المبغوض من الحلال بالصلاة المكتوبة في غير المسجد لغير عذر، والحديث دليل على أنه يحسن تجنب إيقاع الطلاق ما وجد عنه مندوحة[1]»[2].

وفي حديث آخر، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أحل الله شيئاً أبغض إليه من الطلاق»[3].

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «ما زال جبريل يُوصيني بالنساء حتى ظننتُ أنه سَيُحرّم طلاقهن»[4].

وفي الباب أحاديث أُخَر غير ما ذكرنا.

* * *

---

(١) مندوحة: أي مهرب، نقول: لك هذا الأمر مندوحة: أي يمكنك تركه والميل عنه. روى ابن السني، عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «في المعاريض مندوحة عن الكذب».

(٢) سبل السلام (٦/ ١٥٥).

(٣) رواه الإمام أبو داود في سننه، والبيهقي في السنن الكبرى مُرسلا عن محارب بن دثار، ورواه الحاكم في المستدرك وصحّحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ورواه الدارقطني في سننه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه. وحَسنه الإمام السيوطي في الجامع الصغير (ص ٤٧٧ ح ٧٧٩٤).

(٤) رواه الإمام ابن أبي الدنيا في العيال (ص ١٦٤ ح ٤٨٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

من فتاوي العلماء

وقد فَهِمَ العلماء مقاصد تلك الأحاديث النبوية، فلم يُشرعوا الباب هم أيضا لكل راغب في التطليق، ونَهوا حتّى عن إطاعة الوالدين ـ الذين أمر الله تعالى ببرّهم في كتابه الكريم ـ إذا أمَروا بفراق الزّوج زوجته.

ومِنْ هؤلاء العلماء:

١ - مفتي الحرم المكي عطاء بن أبي رباح:

فقد روى الإمام عبد الله بن المبارك في «البرّ والصلة»، قال رحمه الله: «أخبرنا ابن لهيعة قال: حدثني معاوية بن الريّان، أنه سمع رجلا يسأل عطاء عن رجل له أمّ وامرأة، والأم لا ترضى إلا بطلاق امرأته، قال: ليتّق الله في أمّه وليَصلها، قال: أيفارق امرأته ؟ قال عطاء: لا، قال الرجل: فإنها لا ترضى إلا بذلك، قال عطاء: فلا أرضاها الله، إمرأته بيده، إنْ طلقها فلا حرج، وإنْ حبسها فلا حرج»[١].

٢ - الإمام الحسن البصري:

ـ وروى أيضا، قال: «أخبرنا حماد ابن سلمة، عن حميد، عن الحسن البصري قال: قيل له: رجلٌ أَمَرَتهُ أمهُ أن يُطلق امرأته ؟ قال الحسن: ليس الطلاق مِن بِرّها في شيء»[٢].

(١) البر والصلة (ص ١٣٤ ح ٥٩).
(٢) المصدر السابق (ص ١٣٤ ح ٦٠).

٣- الإمام عبد الله بن المبارك:

ـ روى الإمام أبو نُعيم في «حلية الأولياء»، عن بشر بن الحارث أنه رحمه الله تعالى قال: «سأل رجل ابن المبارك فقال: إنّ أمي لم تزل تقولُ تزوجْ حتى تزوجتُ، فلآن قالت لي طلقْها. فقال: إن كنتَ عملتَ عمل البرّ كلّه وبقي هذا عليك فطلِقها، وإنْ كنتَ تُطلقها وتأخذ إلى مُشاغبة أمك فتضربها فلا تُطلقْها»[١].

٤- الإمام أحمد بن حنبل:

ـ قال القاضي ابن أبي يعلى رحمه الله في «طبقات الحنابلة»، في ترجمة سِنْدِيٌّ أبو بكر الخواتيمي البغدادي:«قال سِنديّ: سأل رجل أبا عبد الله قال: إنّ أبي يأمرني أن أطلق امرأتي ؟ قال: لا تُطلقها، قال: أليس عُمَر أمر ابنه عبد الله أنْ يُطلق امرأته[٢]؟ قال: حتى يكون أبوك مثل عُمر رضي الله عنه»[٣].

٥- العلامة المحدث عبد العزيز بن الصديق الغماري:

ـ قال عليه الرحمة والرضوان في إحدى «مقالاته»: «..فلا حقّ لوالدِ الزوْج أو والدته، ولا والد الزوجة ووالدتها في فَسخِ عقدة النكاح وإبطال

---

(١) حِلية الأولياء (٨/ ٣٤٥).

(٢) روى الترمذي في سننه وصححه، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال:«كانت تحتي امرأة أحبها، وكان أبي يكرهها، فأمَرني أن أطلقها، فأبَيت، فذكرتُ ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسَلَّم فقال: يا عبد الله بن عمر، طلق امرأتك». تهذيب جامع الإمام الترمذي (٢/ ٦٣ ح١٠٧١).

(٣) طبقات الحنابلة (١/ ٤٥٦)، المنهج الأحمد (١/ ٢٩٧).

الزواج لحاجةٍ نفسية وعوامل شيطانية، التي كثيراً ما يصاب بها والدي الزوج والزوجة معاً، فيدعوان إلى الطلاق والفراق»[١].

وهذا مِن رفيع الفقه لديهم رحمهم الله.

* * *

(١) ما يجوز وما لا يجوز في الحياة الزوجية (ص ٢٤٠).

وبعد،

فهذه قِصصٌ وحِكايات، فيها عِبرٌ وآيات، عن أنبياء، وعلماء، ورجالٍ صالحين، وفلاسفة حُكماء، ابتُلوا بأزواج غير مُوافقات، سَريعات الاستسلام لداعِي الغضب، يُكثرنَ منَ الشتم والسّباب، واللوْم والعِتاب، في الخلوة وأمام الأصحاب.

وهُمْ ـ مع ذلك ـ بهنّ متمسكون !

لم يلجأوا للطلاق، أو لإساءة مُعاملتهن كما يفعل مَن بضاعته سُوء الأخلاق، بل تَحلّوا بالحلم، وأظهروا ثمرة العلم، ورأوا أنّ المولى ـ جلّ وعلا ـ زيادةً على ما يَكتُبُ لهم منَ الثواب والأجر، يُكفر عنهم ـ بحلمهم ذاك وبصبرهم على نسائهم ـ الذنوب والخطايا، ويدفع عنهم أنواعاً من المِحَنِ والبلايا.

بل إنهُم عَدُّوا الابتلاءَ بِمِثل مَنْ ذَكرنا منَ الأزْواج، مِنْ علامات الوِلاية، وإشارةٌ على وجُود العِناية !

* قال حُجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: «الصّبر على لِسَان النساء مما يُمتحنُ به الأولياء»(١).

* وقال الإمام عبد الوهاب الشعراني رحمة الله عليه: «سمعتُ سيدي علياً الخواص(٢) رحمه الله يقول: قَلَّ أحدٌ من الأولياء إلا وَهُو تحت حُكم امرأته تُؤذيه بلسانها وبأفعالها»(٣).

---

(١) إحياء علوم الدين (٢ / ٤٩).

(٢) من أكابر العارفين، كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك فكلامه على معاني القرآن والسنة المشرفة تحيّر فيه العلماء، توفي رحمه الله سنة ٩٣٩هـ. ترجمته في: الطبقات الكبرى للشعراني (٢ / ٢٦٦ رقم: ٦٣)، الكواكب الدرية للمناوي (٢ / ٤٩٥ رقم: ٨٠٤).

(٣) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية (ص ٢٦١).

وهيَ كلماتٌ تدلّ على نياتٍ طيبة، ومقاصد حسنة، تحفظ للبيت المُسلم الاستقرار، وتضمن للعلاقة بين الزوجين الدّوام والاستمرار.

رجاؤنا من جمع هذه القصص والحِكايات، تَسلية المُبتلين، وتنبيه الغافلين، وإفادة الطالبين، وغيظ الشيطان الرجيم، الذي يَسعى جُهدهُ للتفريق بين كل مُتحابّين.

ففي «صحيح الإمام مسلم»،عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعثُ سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيءُ أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركتهُ حتى فرّقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيُدنيهِ منهُ ويَقول: نِعْمَ أنتَ»[1].

فإن ساهمتْ هذه الرّسالة في تصْحيح نيّات البَعض، وكظمِ غيظ آخرين، وجبرِ صَدْعِ بيوتٍ كانت على وشك الانقسام والتشتتِ، فقد حَصّلنا المقصود، ونِلنا المطلوب المرغوب.

ومن الله نستمد التوفيق، ونسأله سبحانه السّداد.

* * *

---

(١) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي (١٧ / ٣٢٣٣ ح ٦٧) كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل شيطان قريناً.

محاسن الحِلم على الزوجة

لازلتُ أذكر ذاك اليوم الذي سألتُ فيه بعض الشباب، ممّن درسَ في الجامعة، وكان يسعى للزواج مِن ذاتِ الدِّينِ:

ماذا تصنعُ لو أن زوجتك سبّتك يوما ؟

فنطقَ بلفظةٍ واحدة تختزلُ الكثير من الكلام، قال: إلا كرامتي !!

فإنْ كان هذا رأيُ مَنْ هذه صفاته، فلا يُستغربُ ارتفاع نسبة الطلاق في بلدنا وفي غيرها من بلاد المسلمين إلى نِسبٍ مَهولة[١].

لذلك فإن حاجة الأمة إلى الأخلاق المُحمدية والمكارم المُصطفوية، كخُلق: الحلم، والصبر، والعفو، والرفق، واللطف، والرحمة.. في تعاملنا مع أزواجنا وأبنائنا خاصّة، ومع الناس عامة، حاجة ضرورية وجدّ مُلحة، إذ هي باب السّيادة، والطريق نحو الفلاح والسعادة، وهي المَخرج مما نحن فيه من تباعد وتنافر وخصام.

وليسَ الحِلم على الزّوجة والصبر على أذاها بالأمْر المُهين، ولا هو بالعلامة على الضعف وانعدام الشخصية وانهزام الرجولة كما يعتقده بعض الجاهلين، بل هو من أخلاق أعلام هذه الأمة، وعلامة على الفقه والسيادة.

(١) قُدّرت حالات الطلاق في بلادنا المغرب سنة ٢٠١١ م بأزيد من خمسين ألف حالة ! ومع ذلك فإنه يحتل مرتبة غير متقدمة في هذا الشأن بين بلدان العالم العربي !

* قال علي بن الحسن رحمه الله: «كان يُقال: السّؤدد الصّبر على الذلّ»(١).

* وقيل لعيسى بن طلحة بن عبيد الله، وكان رحمه الله حليماً: «ما الحِلم؟ قال: الذلّ»(٢).

* وقال الملك معاوية بن أبي سفيان، وكان رحمه الله مشهوراً بالحِلم: «إنّ الحِلم الذلّ»(٣).

* وقال الأمير المجاهد الشيخ عبد القادر الجزائري رحمه الله تعالى في إحدى قصائده يتغزل بزوجته:

فما في الذُّل للمحبوب عار　　سَبيل الجدّ ذلّ للمُراد

رضا المحبوبِ ليس لهُ عديل　　بغير الذل ليس بمُستفاد(٤)

وهذا نصّ في البابِ، ننقله مِنْ كتابٍ قيّم نفيسٍ، ألفه العلامة الزاهد أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري(٥)، عنْوَنهُ: «محاسن الإسلام»، يقول فيه ذاكراً بعضاً مِنْ مَحاسِن النّكاح، مُرغباً في الحِلم على النّساء:

«ومِنْ جُملة المَحاسن فيه: استعمال العقل في عادة الحِلم، فإن السّفه في

---

(١) الحلم لابن أبي الدنيا (ص ٦١ رقم: ٨١).
(٢) المصدر السابق (ص٣٥ رقم: ٣٠).
(٣) المصدر السابق(ص ٣٥ رقم: ٣١).
(٤) الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري (ص ١٦٩).
(٥) فقيه مفسر أصولي، له عدة مؤلفات منها: تفسير للقرآن الكريم، محاسن الإسلام، الجواهر المضية، وغير ذلك. توفي رحمه الله سنة ٥٤٦هـ.

النساء غالب، قال عليه الصلاة والسلام: «إنّكُن إذا جُعتن دفعتن، وإذا شبعتن بطرتن»[1]. والحِلم صفة محمودة، ذات الله تعالى بالحلم موصوف، والحليم من أسمائه، لا يُعجل بمؤاخذة الجاني المستحق للأخذ. فإذا تزوّج؛ يحتاج إلى تحمل الأذى عنهن، والصّفح والعفو والإحسان معهن، وقد جَمع الله تعالى جميع الأوصاف المحمودة في الآية الكريمة، قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩]، فكلّ مَنْ تزوج يلزمه في كل ساعة أن يأخذ العفو ويأمر بالمعروف ويُعرض عن الجهل، فهذا أظهر المحاسن.

جاء في الخبر: أنّ عائشة رضي الله عنها كانت تبكي على جاريةٍ كانتْ لها، فقيل لها في ذلك؟ فقالت: أبكي حَسرة على ما فاتني مِنْ تحمل السّفه عنها والحِلم عن سُوء خُلقها، فإنها كانت سيئة الخُلق بمَرّة.

فالله تعالى خلقَ الحِلم في بعض عباده ومَدحهم به، والسّفه في بعضهم وذمّهم به، فالحليمُ[2] خُصّ بالحلم ليتحمل على السّفيه، وإلا ليس في خُلق الحِلم فائدة، ومَن لم يتحمّل عن السفيه فهو سفيه.

حُكي أن رجلا فارقه رفيقٌ في السّفر، فكان يبكي على فراقه، فقيل له في ذلك؟ قال: كان سَيِء الخُلق، وكنتُ أتحمّل عنه، قيل له: لو كنتَ حَسن الخُلق ما عرفتَ سُوء خُلقه.

---

(١) لم أجده فيما لدي من مراجع.

(٢) قال سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام في كتاب «التخلق بأخلاق الرحمن» (ص ٢٧): «الحليم: هو الذي لا يَعجلُ بعقوبة المذنبين، فاحلُم عن كل من آذاك وظلمك، وسبّك وشتمك، فإن مولاك صبورٌ حليمٌ، برٌّ كريمٌ، يقبلُ التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما يفعلون».

فمَن عرَف مِن أخيه سُوء خلقه فهو ليس بحليم، ومَن لمْ يتحمّل عن النساء فهوَ أنقصُ عقلاً من النساء»(١).

شِعر:

لنْ يبلغ المجدَ أقوام وإنْ شرفوا حتى يَذلوا وإن عـزّوا لأقـوامِ

ويُشتَموا فترى الألوان مُسْفرة لا صَفحُ ذلٍّ ولكن صَفح إكرامِ

* * *

(١) محاسن الإسلام وشرائع الإسلام (ص ٤٤، ص ٤٥).

حكايتان في فضل الحلم على الأزواج وعُلوّ مقام الصّابرين على أذاهن

والصبر على الأزواج عند أقوامٍ يُثمر الوِلاية وعُلو المَقام.

ومِمّنْ أثمر صبره عليهن ذاك الفضل:

* العارف الكبير سيدي أحمد الرِّفاعي قدّس الله سرّه[١]:

قال العلامة الحنبلي محمد بن يحيى التادفي[٢] في كتاب «قلائد الجواهر»، عند ترجمته لهذا العارف الشهير: «قال بعض أصحابه: إنه رآه في المنام في مَقعد

---

(١) هو مؤسس الطريقة الرفاعية المعروفة، وأحد الأولياء الذين اشتهر ذكرهم في كل الأقطار، الشيخ الزاهد، الفقيه القدوة، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الرفاعي البطائحي الشافعي، ولد سنة ٥٠٠ هـ، أخذ عن خاله الشيخ منصور البطائحي وعن غيره، وتتلمذ له خلائق لا يُحصون، له مؤلفات، منها: البرهان المؤيد، حالة أهل الحقيقة مع الله، وغير ذلك. كانت وفاته رحمه الله سنة ٥٧٨هـ. ترجمته في: الطبقات الكبرى للشعراني (١/ ٢٥٠)، الكواكب الدرية للمناوي (٢/ ٢٩)، شذرات الذهب (٦/ ٤٢٧)، كما أفرده بالترجمة غير واحد.

(٢) هو الشيخ القاضي أبو البركات جلال الدين محمد بن يحيى بن يوسف الربعي التادفي الحلبي الحنبلي، ثم الحنفي، ولد سنة ٨٩٩هـ، أخذ العلم عن علماء حلب والقاهرة، وولي القضاء في عدة مدن، من مؤلفاته: قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر، القول المذهب في بيان ما في القرآن من الرومي المعرب، وغير ذلك. وكانت وفاته رحمه الله سنة ٩٦٣هـ. ترجمته في: شذرات الذهب (١٠/ ٤٩٢)، الأعلام (٧/ ١٤٠).

صِدقٍ مِراراً ولم يُخبره، وكان للشيخ امرأة بذيئة اللسان، تسفه عليه وتؤذيه، فدخل عليه الذي رآه في مقعد صِدق يوماً، فوجد بيد امرأته مِحراك التنّور، وهيَ تضربه على أكتافه، فاسْودّ ثوبه وهو ساكتٌ، فانزعج الرجل وخَرج مِن عنده، فاجتمعَ بأصحاب الشيخ وقال: يا قوم، يَجري على الشيخ مِن هذه المرأة هذا وأنتمْ سُكوت ؟! فقال بعضهم: مَهرها خمسمئةدينار، وهو فقير.

فمضى الرجل وجمعَ الخمسمئة دينار، وجاء بها إلى الشيخ في صينية، فوضعها بين يديه، فقال له: ما هذا ؟ فقال: مَهْر هذه الشقية التي فعلتْ بك كذا وكذا. فتبسّمَ وقال: لولا صَبري على ضربها ولِسانها ما رأيتني في مَقعدِ صِدق»[١].

ومنهم:

*** أحد السّادة العارفين بالله تعالى:**

قال العلامة أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي رحمه الله تعالى في كتاب «التشوف إلى رجال التصوف»: «سمعتُ عبد النور بن علي يقول: سمعت الشيخ أبا محمد صالح بن ينصارن[٢] يقول غير ما مرّة: اغتمّ شيخنا أبو محمد

(١) قلائد الجواهر (ص١٦٠)، شذرات الذهب (٦/ ٤٢٩)، جامع كرامات الأولياء (١/ ٤٤١).

(٢) من كبار مشايخ وأولياء المغرب، ولد قبل سنة ٥٥٠هـ، أخذ عن الشيخ أبي مدين شعيب الأندلسي، وعن الشيخ عبد القادر الجيلاني، وعن الشيخ عبد الرزاق الجزولي. أثنى عليه الأئمة، وشُدّت إليه الرحلة، وكانت له زاوية مشهورة بمدينة آسفي بالمغرب. توفي رحمه الله سنة ٦٣١هـ. أفرده بالترجمة الشيخ أحمد بن إبراهيم الماجري بكتاب سماه: المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، طبعته وزارة الأوقاف المغربية سنة ٢٠١٣م، وللمؤرخ محمد الكانوني الآسفي كتاب عنونه: البدر اللائح والمتجر الرابح في مآثر آل أبي محمد صالح، طبعَ سنة ٢٠١١م.

عبد الرزاق[١] مِنْ أمرٍ كان بينه وبين زوجه، وربّما ضرَبته[٢]، فاعتزلَها، وانفرد في زاوية ذي النون المِصري بأخميم[٣]، فغدونا إليه يوْماً، فوجدناه قد تلطّخ بالدّماء ورأسُه مَجرُوح، فَحدّثني أنه كان بالزاوية بالليل وبابها مُغلق، فإذا رجل مدّ يده إلى الباب فانفتح، ودخل عليه، فقال له: مَن أنت ؟ فقال: أنا موسى الهروي[٤]، قال عبد الرزاق: فقال لي: اسمعْ أُحدثك، فأنشأ يُحدثني عن نفسه ولم يُصرّحْ، فقال له: ذهبَ رجلٌ إلى وليّ من الأولياء سَمع به، فسار إليه مسيرة أشهر[٥]، فدخل البلد الذي كان فيه بالليل، فنزل في علوّ الدار التي كان يَسكن فيها ذلك الوَليّ، فلمّا كان الليل، سمع ذلك الرجل كلام امرأة الوليّ وقد أتته بطعام، فقالت له: خذ يا مُرائي، فوالله لو علمَ الناس منك ما أعلمُ لرجموك بالحِجارة، فلما سَمع الرجل كلامها تغيّر ظنّه فيه وقال: أتيتُ إلى هذا الشيخ لأتبرك برُؤيته، وزوجُه أعلم بأحواله ! فهَمّ بالانصراف دُون أن يَراه، ثم استقبح الرّجوع دُون أن يَراه، فلما أصبحَ، قرع باب دار الشيخ فقالت له زوجته: إنّ الشيخ ذَهب إلى الغابة ليحتطب. فذهب إلى الغابة، فوجد الشيخ ما بين الشجر، والأسَدُ يكسر له الحطب، فجمعه الشيخ وربطه بالحبل، وجعله على

---

(١) هو الشيخ العارف أبو محمد عبد الرزاق الجزولي المصري المالكي الأشعري، من تلامذة العارف الكبير الشيخ أبي مدين شعيب الأنصاري رحمه الله، استقر بالإسكندرية، وبها كانت وفاته رحمه الله سنة ٥٦٢هـ. ترجمته في: التشوف (ص ٣٢٧)، أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ القسنطيني (ص ٣٦)، البدر اللائح والمتجر الرابح في مآثر آل أبي محمد صالح (ص ٣٥).

(٢) في كتاب المعزى: «وربما آذته بلسانها، وربما ضربته».

(٣) مدينة مِصرية.

(٤) أثنى عليه صاحب المعزى وقال: «موسى الهروي هو أحد الكبراء، وكان من أصحاب أبي مدين، له الخوارق والكرامات الكثيرة من مشيٍّ على الماء، وكان في طيِّ الأرض له عجب العجاب».

(٥) وفي كتاب المعزى: «مسيرة شهر».

ظهر الأسد، فحمله الأسد إلى أنْ قرُب من العمران، فأنزل الشيخ الحطب عن ظهره ورجع الأسد إلى الغابة، فبادرَ الرجل إلى الشيخ فقبّل يَده وقال له: يا سيدي، بم نِلتَ هذا المقام ؟ فقال له الشيخ: بصبْري على ما سَمعتَ البارحة.

ثم قال لي مُوسى الهروي: وأنت يا عبد الرزاق، وضَعَ لك اللهُ التعظيمَ في قلوب أهل المَشرق والمَغرب، وسخّرهم لك إلا عجوزاً واحِدة، فلم تقدِرْ على الصبر على خُلقها!

ثم غابَ عني، فصِحتُ صَيْحة شديدة وَوقعتُ مغشياً عليّ، فإذا بي قد وقع رأسي على الجدار فانجرَح كما ترَوْن.

ثم قال لنا عبد الرزاق: فوالله لا أبالي بعد هذا بما تفعلُه بي الزوجة، ولو نتفتْ لحْيتي ما أنكرتُ عليها.

ثمَّ طرحَ ثيابه للفقراء شكراً لله تعالى على ذلك، فباعوها وأكلوا ثمنها»[١].

شِعر:

على قدرِ فضل المرء تأتي خطوبه ... ويُحمد منه الصبر مِمّا يُصيبه

فمن قلّ فيما يلتقيه اصطبارُه ... لقد قلّ فيما يرتجيه نصيبه

* * *

(١) التشوف (ص ٣٢٩).

عظيم أجر الصّابر على أذى الأزواج

وفي الصبر عليهن أيضا من جزيل الثواب وعظيم الأجر ما يَثقُلُ به الميزان ويغتبط به يوم القيامة.

قال كعب الأحبار[١] رحمه الله تعالى: «مَنْ صَبر على أذى امرأته، أعطاه الله تعالى من الأجر ما أعطى أيوب عليه السلام، ومَن صبرتْ على أذى زوجها لها، أعطاها الله تعالى من الأجر مثل ما أعطى آسية بنت مزاحم رضي الله عنها»[٢].

مِنْ مقاصد الصّبر عليهن: تأديب النفس وتهذيبها

ثمّ إنّ للعلماء والأولياء في صبرهم على أزواجهم عِدّة مقاصد سامية، منها تزكية النفس بتأديبها على الصبر والتحمّل، حتى تتهذب أخلاقها وتهدأ ثوْرتها.

قال حُجّة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله: «وفي الصّبر على ذلك، رياضة النفس، وكَسْر الغضب، وتَحْسينِ الخُلق، فإن المنفرد بنفسه، أو المُشارك لمَن حَسُن خُلقه، لا تترشّحُ منه خبائث النفس الباطنة، ولا تنكشف

---

(١) من التابعين، كان يهودياً فأسلم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، توفي رحمه الله بحمص سنة ٣٢هـ، وقيل سنة ٣٤هـ. ترجمته في: صفة الصفوة (٢/ ٣٦٦ رقم: ٧٤٢)، شذرات الذهب (١/ ٢٠١).

(٢) تنبيه المغترين للشيخ الإمام عبد الوهاب الشعراني (ص ٦١).

بواطن عيُوبه، فحق على سالك طريق الآخرة أن يُجرب نفسه بالتعرض لأمثال هذه المُحركات واعتياد الصّبر عليها، لتعتدل أخلاقه، وترتاض نفسه، ويَصفو عن الصفات الذميمة باطنه»[١].

وقد كان على هذا خُلق الكثير ممّن سبقنا بإحسان:

قال الإمام الرباني سيدي عبد الوهاب الشعراني، مُتحدثاً عن بعض أخلاق مَن مضى مِن صالحي هذه الأمة: «كانوا إذا بلغهم عن امرأة أو عبدٍ سُوء خُلق، تزوّجوها أو اشتروا العبد وصبروا على سوء خلقهما، وكذلك كانوا يشترون الحِمارة أو البغلة الحرون[٢]، فيركبونها ولا يضربونها، يُرَوّضون نفوسهم في الصبر عليها»[٣]، وذلك لأن «مِن أعظم حُسن الخلق؛ صبركَ على مَن تقدر على تنفيذ غضبك فيه ثم تتركه، كزوجتك وفتاك»[٤]، وكذلك لأن «مِنْ أعظم حُسن الخلق أن تغفر وتسامح لمن آذاك من الناس، عملا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[الشورى:٣٧]، وكذلك مِن أعظم حُسن الخلق أن يكون الإنسان نَفاعاً للناس ومَع ذلك يَذمُّونه وينقصونه، فلا يمنعه ذلك منَ النفع لهم»[٥].

* * *

---

(١) إحياء علوم الدين (٢ / ٤٢).

(٢) الحَرون: الجَموح الذي يرفض الإنقياد.

(٣) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية (ص ٣٦٢).

(٤) المصدر السابق (ص ٣٦٢).

(٥) المصدر السابق (ص ٣٦٣).

* وممّن كانت هذه نيته من الفلاسفة الحكماء:

ـ الفيلسوف اليوناني الحكيم سُقراط(١)

وهو أشهر فلاسفة اليونان، وحينما «أُلزِمَ التزويج ـ على عادتهم الجارية في إلزام الأفاضل التزويج ليبقى نسلهم بينهم ـ طَلَبَ تزويج المرأة السّفيهة التي لمْ يكن في بلده أسلط منها، ليعتاد جهلها والصبر على سُوء خلقها، ليقدرَ أن يتحمّل جهل العامة والخاصّة»(٢).

ولمّا قيل له: «لا بد من أن نُزوّجك، قال: إنْ كان ولا بُدّ، فلتكُنْ إمرأة قبيحةَ الوجهِ، سيئة الخُلق، فقالوا: لمَ هذا ؟! فقال: أمّا الأول، فلئلا تحِنّ نفسي إلى اجتماعها، وأما الثاني فلأرَوِّضَ نفسي على الاحتمال»(٣).

شعر:

يا حبذا الحلم ما أحلى مَغبته ... جداً وأنفعه للمرء ما عاشا

* * *

(١) هو أبو الفلاسفة الحكيم الزاهد المتألّه سقراطيس، ولد بأثينة، وكان من تلامذة فيتاغورس الفيلسوف المشهور، له وصايا شريفة وآداب فاضلة وحكم مشهورة، قُتل مسموماً لأنه خالف اليونانيين في عبادتهم الأصنام، وقابلهم بالحجج والأدلة، فثوّروا العامة عليه، واضطرّوا مَلكهم إلى قتله، فقتله بالسُّم تفاديا من شرّهم بعد مناظرات جرت له مع الملك محفوظة. ترجمته في: نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة (ص ١١٩).

(٢) نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة (ص ١١٩).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٣٢).

(من آدابهم عدم نسبة الإذاية للزوجة!!)

ومِن نُبل سَلف هذه الأمة وصلاحهم وَسُمو أخلاقهم، أنهم لا يَنسبون ما يَصدر مِن إذاية من زوجاتهم إليهن، بل ينسبونه إلى أنفسهم!!

قال الإمام الشعراني في «تنبيه المُغترين»: «ومن أخلاقهم رضي الله عنهم: صَبْرهم على أذى زوجاتهم، وشهودِهم أنّ كل ما بدا مِنْ زوجة أحدهم منَ المخالفات له صُورة معاملته لربه، فلما خالف ربه كذلك خالفته زوجته، وهي قاعدة أكثرية لا كلية، فخرج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من ذلك لعصمتهم، وكان عوام السلف إذا لم يشهدوا ما ذكرناه، صبروا على أذاها لشهودهم أنّ نفعها أكثر من ضررها. وكانوا رضي الله عنهم يؤدون إلى المرأة حقها على الكمال، ولا يمنعهم مخالفتها لهم عن ذلك عملا بنحو حديث: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[1].

ومِنْ هذا الباب ؛ قولُ العارف بالله سيدي علي الخواص[2] رحمه الله، فيما نقله عنه تلميذه الإمام الشعراني: «أخلاق الزوجة على أخلاق الرجل نفسه، لأنها منه خلقتْ، فمن جهل شيئاً من أخلاقه فلينظر إلى أخلاق زوجته فإنها تغمز عليه، فإن أردتَ يا أخي استقامة زوجتك في الأخلاق فاستقم مع الله

---

(١) تنبيه المغترين (ص ٦٢).

(٢) من كبار العارفين، أخذ عنه الإمام الشعراني. توفي رحمه الله سنة ٩٣٩هـ. ترجمته في: الطبقات الكبرى (٢ / ٢٦٦ رقم: ٦٣)، الكواكب الدرية (٢ / ٤٩٥ رقم: ٨٠٤).

فيما بينك وبينه. قال: وهذا أمر أغفله غالب الناس فصاروا يشكُون من أخلاق زوجاتهم ولا ينتبهون لنفوسهم، ولو أنهم عرفوا ما قلناه لرجعوا لنفوسهم فاستقاموا في أخلاقها فاستقامت أخلاق نسائهم»[١].

ثم قال الشعراني مؤيداً كلام شيخه: «وقد جرّبتُ أنا زوجتي أم عبد الرحمن رضي الله عنها في أخلاقها، فلا أتعوّج في عمل ظاهرٍ أو باطنٍ إلا وتتعوّجُ عَليّ في أخلاقها قهراً عليها مع أنها ذات خُلق حَسن، ورُبما أكونُ معها في أحْسن ما يكون مِن حُسن العشرة، فيخطُر في بالي فعل شيء من الشهوات فتتغير في المجلس قهراً عليها، فأعرف سبب ذلك، فأرجعُ عنه، فترجع في الحال. وفي «رسالة» القشيري، عن الفضيل بن عياض[٢] أنه كان يقول:«إنّي لأعْصى الله تعالى فأعرفُ ذلك في خُلق حِماري وخادمي وزَوجتي، فإذا استغفرتُ وندمتُ زال ذلك الخلق السَّيئ، فأعرفُ قبول التوبة، وكثيراً ما كنتُ أستغفر وأندم فيدوم الحمار على شموسه[٣]، والعبد والزوجة على مخالفة ما آمرهم به، فأعرف أن توبتي لم تُقبل»[٤]. ففتشْ يا أخي نفسك في الأخلاق

---

(١) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية (ص ٢٦١).

(٢) من كبار أولياء الأمة وعبادها وزهادها، ومن علمائها الورعين، حضر مجلسه وأخذ عنه الأكابر كالشافعي وابن المبارك وغيرهما، قال إبراهيم ابن الأشعت: «رأيت ابن عيينة يُقبّل يد الفضيل بن عياض مرّتين». وقال عبد الله بن المبارك: «ما بقي على ظهر الأرض أفضل من الفضيل». توفي رحمه الله تعالى بمكة سنة ١٨٧ هـ. ترجمته في: صفة الصفوة (١/ ٤٢٨)، تذكرة الحفاظ (١/ ١٨٠ رقم: ٢٣٢)، البداية والنهاية (١٠/ ١٦٥)، الطبقات الكبرى (١/ ١٢٦ رقم: ١٣٩)، الكواكب الدرية (١/ ٣٣٣ رقم: ١٥٦).

(٣) شمس الفرس: أي أنه لا يُمكنّ أحداً من ركوبه أو إسراجه ولا يكاد يستقر، فهو شَموس.

(٤) نقل ابن كثير في: البداية والنهاية (١٠/ ١٦٦)، عن الفضيل بن عياض أنه رحمه الله تعالى قال: «إني لأعصى الله فأعرف ذلك في خُلق حماري وخادمي وامرأتي وفأر بيتي».

السيئة قبل أن تشكو من زوجتك، وكذلك المرأة يَنبغي لها أنْ تفتش نفسها ثم تشكو مِن زوجها»[(١)].

وفي «المنن الكبرى» له أيضاً، قال يُعدّدُ نِعَمَ الله تعالى عليه: «ومِمّا أنعمَ الله تبارك وتعالى به علَيّ: صَبري على عِوج أتباعي وزوجتي وخادمي ونشوزها وإباقه كما مَرّ تقريره، وذلك لعلمي بأن الوجود يعاملني على صورة ما عاملتُ به ربي، فاللوم عليّ لا عليهم في الأصل، لأنهم كالظل الشاخص على حدّ سَواء، فإن كان الشاخص مُستقيماً فالظل مُستقيم، أو أعوج فالظل أعوج، لأنه أثره، ومن طلب استقامة الظل مع عوج الشاخص فقد رام المحال، فالمرأة أو الخادم مثلا عوجهما من عوج أخلاقنا، فمن عقل الرجل أن يرجع إلى نفسه فيتفقدها إذا رأى من زوجته أو خادمه مخالفة لعادتهم السابقة معه، ويسعى في استقامة نفسه في الأعمال مع الله تعالى، فتستقيم رعيته ضرورة، ومن خفة عقل الرجل أن يأمر المرأة مثلا بالطاعة له مع بقائه هو على العوج مع الله تعالى ولا يسعى في استقامة نفسه، فإنه لا يزداد إلا قهراً ويطول تعبه، وربما ترافعا إلى الحكام وطلقها، وظن أنه يظفر بَعدها بمن هي خيرٌ منها وذلك لا يصح، لأنه ما دام أعوج فكل زوجة يتزوجها تنعوج معه، ولو كانت مستقيمة قبل تزوجه بها. (..) واعلم أن النشوز[(٢)] والإباق[(٣)] والشموص[(٤)] يَعظُمُ ويشغر بحسب عظمة ذلك الذنب عند الله وصِغره، فإن كان الذنب عظيماً كانت مخالفة مَن

---

(١) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية (ص ٢٦١).

(٢) النشوز يكون من الزوجة تجاه الزوج، بأن تعصيه وتخرج عن طاعته فيما يلزمها طاعته فيه، وفي كتاب الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ..﴾ الآية [النساء: ٣٤].

(٣) الإباق يكون من العبد، وهو بمعنى الهرب.

(٤) شَمَصَ: آذى إنساناً حتى غَضِب.

ذكرنا له أعظم، وكلما بالغ الزوج أو السيد مِنْ شكواه مِنْ مخالفة الزوجة وإباق العبد وشموص الحمار، عرَفنا شِدّة مؤاخذة الله تعالى له. ثم أعظم مَن يُبتلى بمخالفة رَعِيته الأولياء، لكثرة مناقشة الحقّ تعالى لهم، رحمةً بهم، حتى لا يتمادى أحدهم في القطيعة والغفلة عن الله تعالى بخلاف غيرهم»[١].

ثم نقل عن شيخه العارف علي الخواص قوله: «الرجل مُبتلى بزوجته وعبده وحماره وغير ذلك على كل حال، فإنَّ هذه الأمور إن لاقتْ بخاطره أصابته في قلبه بالميل إليها فأهلكته، وإن لم تلق بخاطره أصابته في ظاهره فكَرِه رؤيتها وكدّرت عليه معيشته، ولا شك أن ذلك أهون من أن تصيبه في قلبه، فإن الحق تعالى غَيورٌ، فمَن مَال عنِ الله تعالى إلى غيرهِ بغير إذنه ضُرب بسهم مسموم في قلبه، فخَسِر الدّارين، فرحمَ الله مَنْ أتى البيوت مِن أبوابها ولم يَعتب امرأة إذا خالفته، وإنما يلوم نفسه التي انعوجتْ حتى انعوجتْ زوجته، هذا هو الغالب في حقّ أمثالنا»[٢].

قلتُ: وهذا هو مذهب العارف الكبير مولاي العربي الدرقاوي[٣] رحمه الله تعالى، يظهر ذلك من خلال قوله في إحدى «رسائله»: «قال لي بعض

---

(١) المنن الكبرى (ص ٣٩٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٩٦).

(٣) هو العارف الكبير، الإمام المربي، سيدي محمد العربي بن احمد الدرقاوي الزروالي الحسني. حفِظ القرآن بالروايات السبع، ورحل لفاس فقرأ على أكابر علمائها، ثم اتصل بالشيخ العارف بالله سيدي علي الجمل رحمه الله، فأخذ عنه وكان فتحه على يديه. ترك عدة رسائل طبعت مجموعة، أثنى عليها وما تضمنته عدد من العلماء المشايخ. توفي رحمه الله سنة ١٢٣٩هـ. ترجمته في: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس (١/ ١٩١ رقم: ١١٢)، طبقات الشاذلية الكبرى (ص ١٨٥)، المطرب بمشاهير أولياء المغرب (ص ٢٠٥).

الفقراء: إمرأتي غلبتني، فقلتُ له: ليس هي التي غلبتك، إنما غلبتكَ نفسك، فإن غلبتَها غلبتَ الكون بأسْره رغماً على أنفه فأحرى امرأتك، فلو قتلناها[١] لقتلنا بقتلها جميع الظالمين، ولعنة الله على الكاذبين»[٢].

وهو أيضاً مذهب الإمام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي، إذ يقول رحمه الله في كتاب «صيد الخاطر» ما نصه: «شكا لي رجل مِن بغضه لزوجته، ثم قال: ما أقدْرُ على فراقها لأمور، منها كثرة دَينها عليّ، وصَبري قليل، ولا أكادُ أسلم من فلتات لساني في الشكوى وفي كلماتٍ تعْلَمُ بُغضي لها.

فقلتُ له: هذا لا ينفع، وإنما تؤتَى البيوت من أبوابها، فينبغي أن تخلو بنفسك فتعلَم أنها إنما سُلطت عليك بذنوبك، فتُبالغ في الاعتذار والتوبة، فأما التضجّر والأذى لها فما ينفع، كما قال الحسن عن الحجاج: عقوبة من الله لكم، فلا تقابلوا عقوبته بالسيف وقابلوها بالاستغفار. واعلم أنك في مقام مبتلي، ولك أجر بالصبر ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فعامل الله سبحانه بالصبر على ما قضى واسأله الفرج، فإذا جمعتَ بين الاستغفار وبين التوبة من الذنوب والصبر عل القضاء وسؤال الفرج، حصّلت ثلاثة فنون من العبادة تثاب على كل منها، ولا تُضيع الزمان بشيء لا ينفع، ولا تحتلْ ظاناً منك أنك تدفع ما قدّر ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقد روينا أن جندياً نزل يوماً في دار أبي يزيد، فرآه فوقفَ وقال لبعض أصحابه: أدخل إلى المكان الفلاني فاقلع الطين الطريّ فإنه مِن وجهٍ فيه شُبهة، فقلعه، فخرج الجندي.

---

(١) أي: قتلنا النفس الأمارة بالسوء.

(٢) رسائل مولاي العربي الدرقاوي (ص ٣٠).

وأمّا أذاكَ للمرأة فلا وجه له لأنها مُسلطة، فليكن شغلك بغير هذا، وقد رُويَ عن بعض السلف أن رجلا شتمه فوضع خدّه على الأرض وقال: اللهم اغفر لي الذنبَ الذي سلطتَ هذا به عليَّ.

قال الرجل: وهذه المرأة تُحبني زائداً في الحد، وتُبالغ في خدمتي، غيرَ أن البُغض لها مَركوز في طبعي.

قلتُ له: فعامِل الله سبحانه بالصبر عليها فإنك تثاب، وقد قيل لأبي عثمان النيسابوري[١]: ما أرجى عملك عندك؟ قال: كنتُ في صَبْوَتي يجتهد أهلي أن أتزوج فآبي، فجاءتني امرأة، فقالت: يا أبا عثمان، إني قد هويتك، وأنا أسألك بالله أن تتزوجني، فأحضرت أباها، وكان فقيراً، فزوجني منها، وفرح بذلك، فلما دخلتْ إليّ، رأيتها عوْراء عرْجاء مُشوّهة، وكانت لمحبتها لي تمنعني من الخروج، فأقعد حفظاً لقلبها، ولا أظهرُ لها من البغض شيئاً، وكأنّي على جَمْرِ الغضا[٢] مِن بُغضها، فبقيتُ هكذا خمس عشرة سنة حتى ماتت، فما من عملي شيء هو أرجى عندي من حفظي قلبها.

قلتُ له: فهذا عمل الرجال، وأي شيء ينفع ضجيج المبتلى بالضجر وإظهار البُّغض؟ وإنما طريقه ما ذَكرْتُه لك من التوبة والصبر وسؤال الفرج، وتذكر ذنوباً كانت هذه عقوبتها، وبالغ، فإن وقع فَرَجٌ فشيء كأنه ليس في الحساب، وإلا فاستعمال الصبر على القضاء عبادة، وتَكلّفْ إظهار المَوَدّة لها وإنْ لم تكن في

---

(١) هو الإمام أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري، ولد بالري، وخرج لنيسابور فاستوطنها إلى أن توفي فيها سنة ٢٩٨هـ. ترجمته في: الحلية (١٠/ ٢٤٤ رقم: ٥٦٨)، صفة الصفوة (٢/ ٣٠١ رقم: ٦٧٧)، الكواكب الدرية (١ / ٤٩٢ رقم: ٢٥٠).

(٢) الغضا: شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زماناً طويلًا لا ينطفئ.

قلبك تثبُتْ على هذا، وليس القيد ذنباً فيُلام، إنما ينبغي التشاغل مع قيدك به والسلام»[١].

شعر:

الحلمُ زين والتقى كريم　　　والصبر خير مراكب الصعب

❋　❋　❋

(١) صيد الخاطر (ص ٢٧٨- ٢٧٩).

مَن صبرَ على أذى زوجته
كيْ لا يُبتلى بها غيره منَ المسلمين

قال الإمام الشعراني رحمه الله: «قد يكون بعض الأولياء مُستقيماً في الباطن، ويُبتلى بزوجته وبأصحابه وغيرهم اختباراً له وتحمّلا عَن غيره من الناس، فربما كان غيره يتزوج تلك الزوجة فلا يتحمل أذاها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»[١].

ومِمّنْ كان على هذا الخلق العجيب، فكان من الصّابرين:

- الإمام أبو بكر ابن اللباد المالكي رحمه الله:[٢]

فقد ذَكَر القاضي عياض رحمه الله في كتاب «ترتيب المدارك»، عن محمد بن إدريس، أنه كانت لأبي بكر ابن اللباد «امرأة سليطة، تؤذيه بلسانها، فحكى أنها قالتْ له يوماً: يا زاني! فقال: سَلوها، فبمنْ زنيتُ؟ قالت: بالخادم. قال: سلوها لمن الخادم؟ قالت: له.

فقال له أصحابه: طلقْها، ونحن نؤدّي حقها.

---

(١) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية (ص ٢٦٣).

(٢) اسمه: محمد بن محمد بن وشاح، من أهل إفريقية، ومن كبار فقهاء المالكية، ومن أهل الزهد والورع ممن تستجاب دعوتهم، وبه تفقه الإمام ابن أبي زيد القيرواني، ألف: كتاب الطهارة، وكتاب عصمة الأنبياء وغير ذلك. توفي رحمه الله سنة ٣٣٣هـ. ترجمته في: ترتيب المدارك (٢/ ٢١)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (٣/ ٢١ رقم: ١٩١)، شجرة النور الزكية (ص ٨٤ رقم: ١٦٣).

فقال: أخشى إن طلقتُها، أن يُبتلي بها مُسلم، ولعل الله دفع عنّي بمقاساتها بلاءً عظيماً.

فقال: بل حَفظتها في والدها، فإنّي خطبتُ إلى جماعة فردّوني[١]، وزوّجني هو لله تعالى، وكان يفعلُ معي جميلاً، أفتكون مكافأته طلاقها ؟

وكان يقول: لكل مؤمن مِحنة، وهي مِحنتي»[٢].

ومنهم:

ـ **الشيخ الصالح عبد الله الحجّام رحمه الله[٣]:**

قال العلامة محمد بن الحاج الصَّغير الإفراني عند ترجمته لهذا الشيخ الصالح في كتاب «صفوةُ من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر»: «كان صاحب الترجمة حَسن الأخلاق، مُتحملا لأذى الخلق، وكانت له زوجة شرسة الأخلاق، تؤذيهِ جداً، فسمعَ بعض أصحابه نياحة في داره فسألوه ؟ فقال: إنها وجَدتهُ مضطجعاً، فجعلتْ تندب وتبكي عليه كأنه ميتاً، فقالوا له: هلا طلقتها ؟ فقال: لو فعلتُ لابتلي بها مُسلم غيري»[٤].

---

(١) في معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (٣/ ٢٥) زيادة: «وقالوا لي: لا نُزوّج صاحب مِحبرة وقلم!!».

(٢) ترتيب المدارك (٢/ ٢٢)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (٣/ ٢٥).

(٣) أخذ عن الشيخ أبي حفص عمر الخطاب عن التباع، وكان من الصالحين المتبرك بهم ذوي الأتباع والأخلاق الحسنة والكرامات الظاهرة، توفي رحمه الله بزرهون ـ مدينة بالمغرب ـ سنة ١٠٠١هـ. ترجمته في: صفوة من انتشر (ص ٧٠ رقم: ١٤)، ممتع الأسماع (ص ١٢٨ رقم: ٧٥)، طبقات الحضيكي (٢/ ٤٠٥ رقم: ٥٣٧).

(٤) صفوة من انتشر (ص ٧٠)، طبقات الحضيكي (٢/ ٤٠٦).

غير أنّ خاتمة الحكاية غير حسنة، إذ قال الراوي: «فتحرّك بعض أصحابه ودعا عليها أن يَقبض الله روحها عاجلاً ولا يحضر الشيخ جنازتها، فخرج الشيخ يوماً لوَطرِه، فسقطتْ في بئر وماتت، ولم يحضر جنازتها»[١].

فلا تُصرّ امرأة على إذاية زوجها.. فأوّل مَن يُصابُ هي.

وكذلك لا يؤذي الرجل زوجته، إذْ لا يكرمهن إلا كريم، ولا يهينهن إلا لئيم.

وقد تدعو عليهِ، فتخرق دعوتها السّحاب، و﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي..﴾ الآية [المجادلة:١]، وما أسرع ما يُستجاب للمستضعفين في الظالمين.

ولا يُنزّهنّ زوجٌ نفسه عن الزللِ والخطأ، وينسب مشاكل البيت كلها لزوجته، فإننا إذا استثنينا الأنبياء، فـ: أيّ الرجال المُهذّبُ[٢]؟

❋ ❋ ❋

---

(١) صفوة من انتشر (ص ٧٠)، طبقات الحضيكي (٢/ ٤٠٦).

(٢) هو مثل يُضرب، مأخوذ من قول النابغة الذبياني يعتذر للنعمان:

ولستَ بِمُسْتبْقٍ أخاً لا تلُمّهُ ... على شَعَثٍ أيُّ الرجال المُهذب ؟

ذكره الإمام الحسن اليوسي رحمه الله في كتاب: زهر الأكم في الأمثال والحكم (١ / ١٥٠)، وقال: «أي لا رجل يكون أبداً حسن الفعال، طاهر الخِلال، مَحمود الخصال، إلا من عُصِم، كقول الآخر:

من ذا الذي ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط ؟».

رجال كانت زوجاتهم تؤذيهم!

وهذه تراجم سادة كرام، هُم صفوة بني آدم، ونُخبة بني الإنسان، فيهم أنبياء، وعلماء، وأولياء، وفلاسفة حُكماء، ابتلوا فحلموا وصَبروا، منهم:

ـ رسول الله سيدنا نوح، ونبي الله سيدنا لوط، عليهما السلام:

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾[التحريم: ١٠].

قال الإمام السيوطي في «الدر المنثور»: «أخرج عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحّحه، من طرق عن ابن عباس في قوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: ما زنتا، أما خيانة امرأة نوح فكانت تقول للناس: إنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدُلّ على الضيف، فتلك خيانتهما»[(١)].

وقال الشيخ العلامة عبد الله بن الصديق الغماري[(٢)] رحمه الله: «إمرأة

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١٤ / ٥٩٥).

(٢) هو الشيخ العلامة المحدث الأصولي سيدي عبد الله بن الإمام محمد بن الصديق الغماري الحسني، ولد سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م، أخذ عن والده وعن شقيقه الحافظ أحمد بن الصديق وعن غيرهما من علماء المغرب والمشرق، درس في القرويين وتخرج من الأزهر الشريف، خلّف العديد من المؤلفات في مختلف الفنون، وكانت وفاته رحمه الله بمدينة طنجة سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م. ألف في ترجمة نفسه كتاب: سبيل التوفيق في صديقون (ص ٧٦)، =

نوحٍ كانت تَرْمي زوجها بالجُنون، وتُساعد قومها عليه في شتمه وإيذائه، وامرأة لوطٍ كانت تدلّ قومها على ضيوفه إذا كانوا حِسان الوُجوه»[١].

* ومنهم:

ـ أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

روى الإمام ابن أبي الدنيا في «العيال»، عن جرير قال: «شكى رجل إلى عمر ما يلقى من النساء فقال: إنا لنجد ذاك حتى إني أذهب إلى الحاجة فتقول: إنما تأتي فلان لتنظر إلى بنات فلان. فقال ابن مسعود: يا أمير المؤمنين، أما بلغك أن إبراهيم شكا إلى الله عز وجل ذَرِبَ[٢] نسائه، فأوحى الله تعالى إليه أن البسها على ما كان منها، ما لم تر عليها خزية في دينها، فإنها خلقت مِنْ ضلع أعوج[٣]، فقال عُمر: لقد جعل الله مِن حَوائجك عِلماً كثيراً»[٤].

= وأفرده بالترجمة تلميذه الدكتور فاروق حمادة بكتاب عنوانه: عبد الله بن الصديق الغماري الحافظ الناقد.

(١) خواطر دينية خواطر دينية وبحوث غالية وقطوف دانية (ص ٣٩).

(٢) أي: سلاطة ألسنتهن.

(٣) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في: البداية والنهاية (١١/ ٢٥٨)، في ترجمة الأمير عبد الله بن محمد بن ورقاء: «روَى عن ابن الأعرابي أنه أنشد في صفة النساء:

هــي الضلـع العوجـاءُ لسـت تقيمهـا ... ألا إن تقويـمَ الضلـوع انكسـارها

أيجمعن ضعفاً واقتداراً على الفتى ... أليس عجيباً ضعفهـا واقتدارها ؟!

قلتُ: وهذا المعنى أخذه من الحديث الصحيح: إنّ المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإنّ أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسَرته، وإن استمتعتَ بها استمتعت وفيها عِوَج».

(٤) العيال لابن أبي الدنيا (ص ١٦٢ ح ٤٧٥).

* ومنهم:

ـ نبي الله سيدنا يُونس عليه السّلام:

قال حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله: «في أخبار الأنبياء عليهم السلام، أن قوماً دخلوا على يونس النبي عليه السلام فأضافهم، فكان يدخل ويخرج فتؤذيه امرأته، وتستطيل عليه وهو ساكت، فتعجّبوا من ذلك، فقال: لا تعْجبوا، فإني سألت الله تعالى وقلتُ: ما أنتَ معاقبٌ لي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال: إنّ عقوبتك بنت فلان تتزوج بها، فتزوّجت بها وأنا صابر على ما ترون منها»[1].

* ومنهم:

ـ نبي الله سيدنا زكريا عليه السلام:

كانت امرأته عليه السلام تؤذيه بلسانها، فأصلحها الله تعالى له.

قال الإمام جلال الدين السيوطي في «الدر المنثور»: «أخرج الحاكم وصحّحه، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠] قال: كان في لسان امرأة زكريا طولٌ، فأصلحه الله.

وأخرج عبدُ بن حميدٍ، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق»، وابن عساكر، عن عطاء بن أبي رباح في قوله: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ قال: كان في خلقها سوء، وفي لسانها طولٌ، وهو البَذاءُ، فأصلح الله ذلك منها»[2].

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٤٢).

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١٠/ ٣٦٦).

* ومنهم:

ـ رسول الله سيدنا ومولانا محمد ﷺ:

ونقتطف ما ورَد في ذلك مِن كتاب «إحياء علوم الدين» لحجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي، قال رحمه الله في «كتاب آداب النكاح» مِنه: «واعلم أنه ليس حُسن الخلق معها كفُّ الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها، والحِلم عند طيشها وغضبها، اقتداءً برسول الله ﷺ، فقد كانت أزواجه تُراجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل.

وراجعتْ امرأة عمر رضي الله عنه عمر في الكلام فقال: أتُراجعيني يا لكْعاء ؟ فقالت: إنَّ أزواج رسول الله ﷺ يُراجِعْنه وهو خيرٌ منك، فقال عمر: خابتْ حفصة وخسرتْ إن راجعته. ثم قال لحفصة: لا تغتري بابنة أبي قحافة فإنها حبّ رسول الله ﷺ، وخوّفَها مِنَ المُراجعة.

ورُويَ أنه دفعتْ إحداهن في صدْر رسول الله ﷺ فزبرتها[1] أمّها، فقال عليه السلام: دعيها فإنهن يَصنعن أكثر من ذلك.

وجرى بينه وبين عائشة كلامٌ حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضي الله عنهما حَكماً، واستشهده، فقال لها رسول الله ﷺ: تكلّمين أو أتكلم ؟ فقالت: بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً، فلطمها أبو بكر حتى دميَ فوها، وقال: يا عديّة نفسها أوَ يقول غير الحق! فاستجارت برسول الله ﷺ، وقعدتْ خلف ظهره، فقال له النبي ﷺ: لمْ ندعُك لهذا ولا أردنا منك هذا.

---

(١) انتهرتها وزجرتها ونهتها.

وقالتْ له مرة في كلام غضبتْ عنده: أنتَ الذي تزعُم أنك نبي الله! فتبسّم رسول الله ﷺ، واحتمل ذلك حلماً وكرماً.

وكان يقول لها: إني لأعرفُ غضبك من رِضاك، قالت: كيف تعرفه ؟ قال: إذا رضيتِ قلتِ: لا وإلهِ محمد، وإذا غضبتِ قلتِ: لا وإله إبراهيم، قالتْ: صدقتَ، إنما أهجُرُ اسمك»[1].

فإنْ كانت أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن، وهُن الكاملات العاقلات الفاضلات، يَغضبنَ منْ خير الخلق مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي أثنى على عظيم أخلاقه رب العالمين في كتابه المبين، ويُراجعنه القول.. فكيف بمَنْ يبحث عن زوجةٍ يشترط فيها منَ الأخلاق والصِّفات ما لا تجده إلا في الحور العين المقصورات في الخيام في جنة الخلق والنعيم المقيم !؟

*** حكاية طريفة:**

وأسوقُ هنا حكاية لطيفة، كنتُ قرأتها منذ سنوات، تتحدثُ عن رجل له مثل هذا التصوّر البعيد في المرأة التي يُريد الاقتران بها، احتفظتُ بها، أضحك منها وأُسَرُّ حين تَعتريني الهُموم وتتحاوشني الغمُوم، تحتاجُ أن تُسجّل بين صفحات كتاب «أخبار الحمقى والمغفلين» للإمام ابن الجوزي الحنبلي عليه الرحمة الرضوان.

القصّة رواها الشيخ الفقيه عبد الباري الزمزمي، في عموده «أفضل الجهاد»، المخصّص لمقالاته في جريدة «الرّاية»[2]، وسمّى مقالته: «مُسَلَّمَةٌ لا شِيَّةَ فيها»، قال فيها ـ وأنقله هنا كاملا لطرافته ـ:

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٥٦).

(٢) جريدة مغربية انقطع إصدارها منذ سنوات، والمقال المذكور نشر بتاريخ: الثلاثاء ٢٩ غشت ١٩٩٥م، عدد رقم: ١٥٩، ص ٢.

«زارني زائرٌ مِن بلاد بعيدة عن المغرب، ولم تكن زيارته زيارة أخوّة ومودّة، ولا كانت عنْ معرفة سابقة بيني وبينه، ولكن الرجل جاء إلى الدار البيضاء لحاجة يرجو قضاءها، فكان البحث عن حاجته هو سبب زيارته لي، وقد أبان عن حاجته فور دخوله واستقراره في مجلسه، إذ أخرج مِن جيبه ورقة من الحجم المتوسط، وناولني إياها وهو يقول: إني أريد أن أتزوج امرأة ثانية، فأنا متزوج ولي أربعة أبناء، وعمري سبع وثلاثون سنة، وأعمل في كذا وكذا... إلخ ما ذكره من أحواله وشؤونه، وهذه الورقة بينتُ فيها الشروط التي أريد أن تتوفر في المرأة المطلوبة.

فقرأتُ الورقة التي جعل عنوانها: «شروط الزوجة»، وقد ضُربتْ على الآلة الكاتبة، وله منها نسخ كثيرة، كأنه أعدها للتوزيع والنشر العلني في الشوارع والأسواق وغيرهما.

فإذا شروطه في الزوجة هكذا: (أن تكون: يتيمة، مِنْ آل البيت حقيقة، بِكراً، صغيرة، جميلة، بيضاء البِشرة، نحيلة، شقراء، من ذرية الصالحين السلفيين، ذات دِين، حسنة التربية، تميل إلى الصول[1]، حليمة، صابرة، مُتواضعة، اجتماعية، طيبة المَعْشر، ظريفة، أنيسة، ضاحكة مستبشرة، خفيفة الظل، مرضية، راضية عامة، وترضى بالتعدد خاصة، متنازلة في ترتيب القسم في البيت، مدبرة، متعلمة).

تلك سبعة وعشرون شرطاً بالتمَام والكمال.

فقلتُ للرجل: إنّ شروطك هذه أشدّ تعسيراً من الشروط التي طُلبتْ في بقرة بني إسرائيل، فأجابني على الفور: وإنا إن شاء الله لمهتدون، مقتدياً في

---

(١) هكذا في الجريدة! ولعل الصواب: الأصول. والله أعلم.

قوله هذا بما قال بنو إسرائيل لموسى كما جاء في قصة البقرة: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٠-٧١].

والرجل لا تبدو عليه أمارة البله، ولا تُنبئ ملامحه عن اختلالٍ في عقله، إلا أنّ مثل هذا الصنيع لا يصدر عن تفكير سليم، فهو يظن أن في المغرب مصانع لإنتاج النساء مثل مصانع السيارات، فما على الراغب في الزواج إلا أن يتقدم بطلبه إلى أحد المصانع ليصنع له امرأة وفق الطلب.

إنه لم يطلب امرأة كاملة فحسب، بل طلب المرأة المثالية التي لم يوجد مثلها حتى في أزواج الأنبياء ونساء الصحابة، بل ليس لها وجود حتى في جمال الشعراء والمطربين الذين يتغنون بالمستحيل ويُجسّدون الأوهام ويُلبسون الكذب لباس الصدق، ومع ذلك لم يجرؤوا على القول بوجود الحبيب الكامل والعشيق المثالي.

فنزار قباني يقول في قصيدته التي سماها: «قارئة الفنجان» وغنّاها عبد الحليم حافظ: بحياتك يا ولدي امرأة عيناها سبحان المعبود، فَمُها مرسوم كالعنقود، ضحكتها أنغام ووُرود، والشعر الغجري المجنون يسافر في كل الدنيا، فتغدو امرأة يا ولدي يهواها القلب. ثم يقول: ستُفتشُ عنها يا ولدي في كل مكان، وستَسأل عنها موج البحر وفيروز الشُّطآن، وستعرف بعد رحيل العمر بأنك كنت تطارد خيط دخان، فحبيبة قلبك ليس لها أرض أو وطن أو عُنوان، ما أصعب أن تهوى امرأة يا ولدي ليس لها عنوان.

وفي قصيدة «الأطلال» التي غنّتها أم كلثوم يقول الشاعر: أين من عيني حبيب ساحر، فيه عز وجلال وحياء، واثق الخطوة يمشي ملكاً، بالغ الحسن، عبق السحر كأنفاس الربى، ساهم الطرف كأحلام المساء.

ولا أرى لصاحبي مثلاً إلا كالذي ذهب إلى بائع الحمير فقال: إني أريد حماراً قوياً صابراً قنوعاً، يرضى بالقليل ويصبر على الحمل الثقيل، ويَحملني في المفاوز، ولا يعييه السّير الطويل، إن أعطيته شكر، وإن منعته صبر، وإن أقمته أقام، وإن أمرته أطاع، وإن نهيته انتهى. فقال البائع: اذهب حتى يمسخ الله القاضي حماراً فأتني لأبيعك إياه[1].

إنه نوعٌ من الغرور يَعتري أصنافاً من الرجال والنساء على السّواء، إذ يعتقد أحدهم أن شريك حياته يَجب أن يكون معجوناً مِن طينة غير الطينة التي خُلق منها بنو آدم، فهو مخلوق خلق من أجله، وعليه (ماركة مسجلة) وحقوق الطبع محفوظة لطالبه، وهكذا يقضي عُمراً من حياته في البحث عن مطلوبه ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِۦ﴾ [الرعد:١٤]، فلا يفيق من سَكْرةِ غروره إلا على وهَن العظم واشتعال الشيب وعجز الشيخوخة ـ ولات حين زواج ـ، فيعيش ما بقي من أيامه فرداً منعزلا، لا يأوي إلى أهل ولا ينتسب إليه أحد، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وحَسْب مَن أراد الزواج ـ رجلا كان أو امرأة ـ أنْ يطلب جمال الأخلاق، واستقامة الدِّين، فذلك الذي يُعمّر الديار ويبارك الأعمار، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات:١٣]». اهـ.

---

(١) الحكاية ذكرها الحافظ ابن الجوزي الحنبلي في: أخبار الظّراف والمتماجنين (ص ١٢٦)، قال رحمه الله: «قال أبو عبد الله ابن الأعرابي: كنتُ بالكوفة، فرأيتُ أعمَى قد وقف بنخّاس فقال: يا نخاس، أطلب لي حماراً ليس بالكبير المشتهَر، ولا الصغير المحتقَر، إن خلا الطريق تدفّق، وإن كثر الزحام ترفّق، لا يُصادم بي السّواري، ولا يُدخلني تحت البَواري، إذا أقللتُ علفه صبَر، وإذا أكثرته له شكَر، إن ركبتُه هام، وإن ركبه غيري قام، قال له النخاس: يا عبد الله، إن مَسخ القاضي حماراً ظفرتَ بحاجتك».

ولنعد إلى ذكْر منْ تخلقوا بالحِلم، وتجمّلوا بالصّبر، نُزيّن بذكرهم صفحات رسالتنا هذه.

* منهم:

- أمير المومنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قال أبو الليث السمرقندي رحمه الله في «تنبيه الغافلين»: «ذُكر أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب يشكو إليه زوجته، فلما بلغ بابه، سمع امرأته أم كلثوم تطاولتْ عليه، فقال الرجل: إنّي أردتُ أن أشكو إليه زوجتي، وبه منَ البلوى مثل ما بي! فدعاهُ عمر رضي الله تعالى عنه، فسأله؟ فقال: إني أردتُ أن أشكو إليك زوجتي، فلما سمعتُ مِن زوجتك ما سمعتُ رجعتُ. فقال عمر رضي الله تعالى عنه: إني أتجاوز عنها لحقوق لها عليّ، أوّلها: هي ستر بيني وبين النار، فيسكن بها قلبي عن الحرام. والثاني: أنها خازنة لي إذا خرجت من منزلي، وتكون حافظة لمالي. والثالث: أنها قصارة لي تغسل ثيابي. والرابع: أنها ظئر[١] لولدي. والخامس أنها خبّازة وطباخة لي. فقال الرجل: إن لي مثل ما لك، فما تجاوزتَ عنها فأتجاوز»[٢].

وروى الإمام عبد الرزاق الصنعاني في «المصنف»: «عن ابن عيينة، عن شيخ منهم، عن أبيه قال: جاء جابر بن عبد الله إلى عمر يشكو إليه ما يَلقى من النساء، فقال عمر: إنا لنجد ذلك، حتى إني لأريد الحاجة، فتقول: ما تذهب إلا إلى فتاة بني فلان تنظر إليهن، فقال له عبد الله بن مسعود: أما بلغك أن إبراهيم

---

(١) الظئر: هي العاطفة على غير ولدها المرضعة له.

(٢) تنبيه الغافلين (ص ١٧١)، باب: حق المرأة على الزوج.

عليه السلام شكى إلى الله دري[١] خلق سارة، فقيل له: إنها خلقت من الضلع، فالْبسها على ما كان منها، ما لم تر عليها خربة في دينها، فقال عمر: لقد حشى الله بين أضلاعك عِلما كثيراً»[٢].

كما ذكر الحكاية أيضا الإمام العارف المفسر سيدي أحمد ابن عجيبة، قال رحمه الله في «فهرسته»: «ذَكر ابن حبيب، عن سفيان، أن جرير بن عبد الله شكا إلى عمر ما يلقى من غيرة النساء، فقال له: إني لألقى مثل ذلك، إنّي لأخرج إلى الحاجة فتقولُ ما خرجتَ إلا إلى فتيات بني فلان تنظرُ إليهن، فقال له عبد الله بن مسعود: يا أمير المومنين، أما بلغك أن إبراهيم خليل الرحمن شكا إلى الله تعالى إضرار سارة، فأوحى الله تعالى إليه أن البسْها على ما كان فيها ما لم تر عليها خربة في دينها. والخربة الفساد في الدين. ثم قال ابن حبيب: وبلغني أن رسول الله ﷺ قال: مَن يصبر على سوء خلق امرأته فله بكل يوم وليلة أجر شهيد»[٣].

* ومنهم:

ـ الشيخ الزاهد شقيق البلخي رحمه الله:

قال الشيخ العلامة العارف سيدي عبد الغني النابلسي[٤] رحمه الله في «شرح الطريقة المحمدية»: «كان بعض الكبراء يَصْبر على سوء خلق امرأته،

---

(١) علق الشيخ المحقق هنا في الهامش قال: لعل الصواب: درء، وهو الميل والعوج.

(٢) المصنف (٧/ ٣٠٣ رقم: ١٣٢٧٢).

(٣) نقلها الإمام ابن عجيبة في فهرسته (ص ٨٢).

(٤) إمام كبير وعارف شهير، له الكثير من المصنفات في الحديث والفقه والتصوف وغيرها، توفي بدمشق سنة ١١٤٣هـ. ترجمته في: جامع كرامات الأولياء (٢/ ١٨١)، وقد أفردت سيرته بالتأليف.

فقيل له في ذلكَ فقال: أخشى إن طلقتُها أن يتزوجها مَن لا يصبر على أذاها فيؤذيها. ويُحكى عَن شقيق[١] أنه كانت له امرأة سيئة الخُلق، فقيل له: لما لا تفارقها وهي تؤذيك بسوء خلقها ؟!فقال: إنْ كانت سيئة الخُلق فأنا حَسن الخُلق، فلو فارقتها صبرتُ[٢]، ومع ذلك أخاف أن لا يُمسكها أحد لسوء خلقها»[٣].

* * *

(١) من أجلّ مشايخ خراسان، صَحب إبراهيم بن أدهم واتبع طريقته، ومن الآخذين عنه: حاتم الأصم، استشهد رحمه الله في غزاة كولان سنة ١٩٤ هـ. ترجمته في: صفة الصفوة (١ / ٣٣٨ رقم: ٧٠٣)، الطبقات الكبرى (١/ ١٣٩ رقم: ١٤٧)، الكواكب الدرية (١/ ٢٨٨ رقم: ١١٣).

(٢) عند سيد علي زاده في «شرح شرعة الإسلام» عوَض: «فلو فارقتها صبرت»، قال: «فلو فارقتها صِرتُ مثلها».

(٣) شرح الطريقة المحمدية (٢/ ٥٥٤)، شرح شرعة الإسلام لسيد علي زاده (ص ٤٦٨).

حدود الصبر على أذى الأزواج

ثم أضاف رحمه الله يُبيّن حدود هذا الصبر، وأنّ له نهاية يُضطر معه للجوء إلى الطلاق: «وهذا كله إذا لم يَخفْ مِنها أنْ تصلَ معه إلى حدّ إهلاكه بالقتل، أو قطع العُضْو ونحو ذلك، فإنه يجبُ أن يُطلقها حينئذ دفعاً لشرّها عنه، خُصوصاً إذا كان ضعيفاً لا يقدرُ على دفع شرّها عنه، كما وقعَ عندنا قريباً في دمشق، أنّ امرأة ذبحت زوجها ولها مِنه أولاداً صغار ورثوا القصاص على أمهم فسقط، وقد أقرّت بالقتل ولم يلزمها شرعاً، فحُبست مدّة، ثم أُخرجتْ وأطلقتْ.

وامرأة أخرى همّتْ بقتل زوجها أيضاً فضربها ولم تقدر على ذلك.

وامرأة أخرى تزوّج على امرأته فهمّت بقطع ذَكَره، ووضعتِ السكين تحت الفراش، ثم إن الزوج علم بها فمنعها.

وقد وقع مرة لهذا العبد الضعيف مع امرأةٍ همّت بما لم يقدّرها الله تعالى عليه، ولطفَ الله تعالى، حتى وقع الطلاق منا بمعونة الله تعالى.

والحاصل أن الزوج في يَد المرأة كلّه، عِرضهُ وماله ونفسهُ، فمتَى علم منها ضَرراً فاحشاً وجبَ مفارقتها، وأما الضرر والإيذاء الذي لا يصل إلى نحو ذلك، فالأفضل أن يَصبر عليه ويتحمله منها ويداريها كمال المداراة»[١].

---

(١) الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية (ص ٥٥٤- ٥٥٥).

وهو كلام حسنٌ، ورأيٌ جامعٌ وَسط، مِنْ إمامٍ كبير وعارفٍ شهير، فلا حَياة لزوج يَخاف على نفسه مِنْ زوجته، كما لا حياة لزوجة تخاف على حياتها مِن زوجها، وما كان غير ذلك فالصبر عليه فيه من الفضل ما قد رأينا.

* رسالة طريفة من بعض الوزراء:

ومِنَ الرسائل الطريفة التي تدلُّ على أنّ مَن سبق كانوا يتحاشون بلوغ الطلاق وإن تجرّعوا من زوجاتهم المُرّ، طالما أن الإذاية لم تصل لحد الفتك والقتل، ما وجّهه الوزير الطيب بن اليماني[1] للتاجر محمد بنيس، والمؤرخة في ٢٨ ذي العدة ١٢٧٥هـ/ ٢٩ يونيو ١٨٥٩م، قال له فيها: «مُحِبّنا الأرضى، التاجر المرتضى، السيد الحاج محمد بن المدني بنيس، حفظكم الله وسلام عليكم ورحمة الله عن خير مولانا نصره الله، وبعد، فيصلك كتاب للفقيه سيدي العربي بن المختار (..) هذا وإن الحاج العربي بنيس تسرّى هنا ولم يُقصّرْ، وأخشى إنْ حققَتْ زوجته ما كان مشتغلا به هنا من الزّهْوِ مع السّراري أن تذبحهُ، فنحبّك تكتُم عنها ذلك أي: التسرّي والزّهْو، ولا تقُله إلا لجيرانكم ونگاگيف المدينة وجيرانه هو وأبناء عمكم قاطبة، فإنهم يسْترون ذلك بحيث لا يصلها إلا من ساعته، وإن سمعَتْهُ فاقبضوا منها ضامن الروح، فإن شجاعة نساء فاس لا يصلها غيرهن، وهذا من العجب، وأنت قصّرْ، ولا أخشى عليك

(١) هو العلامة الوزير الكاتب أبو محمد الطيب بن اليماني بن أبي العشرين الأنصاري الخزرجي، طلب العلم فنال منه النصيب الوافر، فاتخذه السلطان المغربي عبد الرحمن بن هشام مُعلماً لأولاده، ثم صار وزيراً، وكانت وفاته رحمه الله بمراكش عشية يوم الخميس ١٤ شعبان عام ١٢٨٦هـ. ترجمته في: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام (٦/ ٣٢٢ رقم: ٨٣٤)، فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان (ص ٨٧).

إلا منَ السريات، وأما الحرّة فحاشاها، ولكن إذا رأتِ النساء يذبحنَ أزواجهن فلا بدّ أن تتشجع، غير أن شجاعتها لا تصل إلى الذبح، وإنما تصل للعضّ والقمش والضرب بالمشامير، وهو أهْون، ونسأل الله أن تضربك أو تهدّدك فقط، وأما القمش والعضّ فإنهما يؤثران فيك ويراهما الناس، وعلى المحبة والسلام»[١].

فاعجب كيف لمْ يذكر في رسالته كلمة الطلاق ولو لمرة واحدة، بل ولم يحُم حول معناه، مع أنّ ما كان يتهدد ذلك الزوج من زوجته بسبب غيرتها وغيرة أمثالها من نساء فاس شيء كبير، وإذاية غير قليلة، وما أوْصى في تلك السطور سوى بالتكتم، وأخْذ ضمان الرُّوح منَ الزوجة، والصّبر على ما يصدُر منها وأمثالها مِنْ ضربٍ وتهديدٍ وغيره!

* * *

(١) نقلتها من مقال للأستاذة فاطمة العيساوي تحت عنوان: وثائق حول المرأة من القرن التاسع عشر: مؤسسة الزواج، والمنشور بـ «مجلة أمل» (العدد الخامس، السنة الثانية ١٩٩٤، ص١٦٢).

* ومنهم:

ـ الإمام الكبير ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله[1]:

قال الإمام أبو بكر بن العربي المعافري رحمه الله تعالى في «أحكام القرآن»: «أخبرني أبو القاسم بن أبي حبيب بالمهدية، عن أبي القاسم السيوري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن قال: كان الشيخ أبو محمد بن أبي زيد من العلم والدين في المنزلة المعروفة، وكانت له زوجة سيئة العِشرة، وكانت تُقصّر في حقوقه، وتؤذيه بلسانها، فيقالُ له في أمرها، فيُعذل بالصبر عليها، وكان يقول: أنا رجلٌ قد أكْمل اللهُ عليّ النعمة في صِحّة بدَني، ومَعْرفتي، وما ملكَتْ يَميني، فلعلها بُعثتْ عُقوبةً على ذنبي، فأخاف إنْ فارقتها أن تنزل بي عقوبةٌ هي أشدّ منها»[2].

* ومنهم:

ـ العارف الشهير محيي الدين بن العربي الحاتمي رحمه الله[3]:

فقد نقل الإمام المقري رحمه الله في «نفح الطيب من غصن الأندلس

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، إمام المالكية في زمانه وقدوتهم، وجامع مذهب مالك وشارح أقواله، الملقب بمالك الصغير، له العديد من المؤلفات وهو صاحب «الرسالة» المشهورة في الفقه المالكي، وكان من أهل الورع والصلاح. توفي رحمه الله بالقيروان سنة ٣٨٦هـ. ترجمته في: ترتيب المدارك: ٢/ ١٤١، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (٣/ ١١١ رقم: ٢٣٩)، شجرة النور الزكية (ص ٩٦ رقم: ٢٢٧).

(٢) أحكام القرآن (١/ ٤٦٨)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/ ٩٨).

(٣) ولد بمرسية بالأندلس سنة ٥٦٠هـ، قرأ القران بالقراءات السبع على محمد بن خلف =

الرطيب»، أنه نوّر الله مرقده قال: «رأيتُ بعض الفقهاء في النوم في رؤيا طويلة، فسألني: كيف حالك مع أهلك ؟

فقلتُ:

إذا رأتْ أهلُ بيتي الكيسَ مُمتلئاً   تبسّمتْ ودنَتْ مِنّي تُمازحني

وإنْ رَأتهُ خليّاً من دراهِمه   تجهّمتْ وانثنتْ عَنّي تقابِحُني

فقال لي: صدَقتْ، كلنا ذلك الرجل»[1].

قلتُ: وفي مثل هذا قال الشاعر علقمة بن عبدة:

فإنْ تسألوني بالنساء فإنني   خبيرٌ بأدواء النساء طبيب

إذا شابَ رأسُ المرء أو قَلّ مالُه   فليس له مِنْ وُدّهن نصيبُ[2]

= اللخمي وغيره، وأخذ الحديث عن عبد الحق الاشبيلي، وابن بشكوال وغيرهما. ترك العديد من المؤلفات أشهرها: الفتوحات المكية، توفي رحمه الله بدمشق سنة ٦٣٦هـ. ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٤٨ رقم: ٣٤)، الطبقات الكبرى للشعراني (١/ ١٨٨)، جامع كرامات الأولياء (١/ ١٨٠)، الكواكب الدرية (٢/ ٢٢١ رقم: ٥٥٢)، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام (٤/ ٢٠٩)، المطرب بمشاهير أولياء المغرب (ص ١١٥).

(١) نفح الطيب (٢/ ١٦٧).

(٢) مما حكاه العلامة المؤرخ سيدي عبد الله الجراري في ترجمته المفردة لشيخه العلامة المحدث سيدي أبي شعيب الدكالي (ص٧١ وص١١٦)، أن شيخه الدكالي رحمه الله تعالى كان كثيراً ما ينشدهما، خاصة عندما يُدرج ذِكر النساء وما وردتْ به السّنة في شأنهن، ثم قال الجراري رحمه الله: «وبعدهما ثالث ولفظه:

يُردن ثراء المال حيث علمنه   وشرخ الشباب عندهم عجيب

والأبيات لعلقمة بن عبدة شاعر جاهلي، كان يُساجل امرأ القيْس».

* ومنهم:

ـ القاضي عياض رحمه الله:

في صبيحة يوم السبت ١٠ مارس ٢٠١٢ م، زُرتُ رفقة أحد السادة الكرام، الشيخ العلامة سيدي مُحمد بن حمّاد الصقلي(١) في بيته بمدينة فاس، فكانت مُذاكرة سَألني فيها الشيخ عمّا وصلتُ إليه في أبْحاثي ؟ فذكرتُ له عناوين بعض ما صنّفته من رسائل، وحين سمع عنوان هذه الرسالة، رأيته ارتسمت على وجهه ابتسامة، فأخذتُ أحدثه عن موضوعها والمقصود منها..

فقال لي: وهل أضفتَ إليها حِكاية القاضي عياض ؟

قلتُ: لا! واستفهمتُه عنها، ورَغِبتُ إليه أن يُحدِّثنا بها.

فقال لنا حفظه الله: زارَ القاضي عياض بعض الفقهاء مِن أصحابه، فوَجدَه قدْ انتهى من تأليف كتاب، فنظر فيه القاضي عياض، فأعجبه، وطلب منه أن يُعيره إياه كي يَقرأه، فذكَرَ له صاحبه الفقيه بأن تلك هي نسخته الوحيدة، وأنه إنْ فُقدتْ ضاعَ الكتاب، فوعده القاضي عِياض بالحفاظ عليه وأنه سيُعيده إليه يَوم الغد.

---

(١) هو الشيخ العلامة الخطيب، والأستاذ المحاضر الأديب، الشريف سيدي محمد بن حماد الصقلي، مِن علماء القرويين، ولد بفاس سنة ١٩٣٠م، فحفظ كتاب الله تعالى والعديد من المتون في شتى الفنون. فقدَ بَصره في مرحلة الثانوية من دراسته بالقرويين، سافر لباريس فتعلم طريقة برايل، ثم عاد للبلاد، فكانت له مساهمات في التوعية الدينية وتعليم الناس وتنويرهم. له عدة مؤلفات، منها: قصيدة سعادة الإنسان بمولد سيد الأكوان، الدين والنبوة وحاجة البشر إليهما، مولد شريف، وغير ذلك.

فأخذه القاضي عياض معه للبيت، وسَهِر عليه تلك الليلة كلها يُطالعه، قال: وكانتْ له زوجة أخذتْ تُراوده وهو لا يلتفت إليها لاشتغاله بالقراءة، فلما أذّن الفجر، خرَج للمسجد للصلاة ولإقراء العلم، وحينما عاد لبيته وقت الظهيرة، اشتم عند دخوله إليه رائحة لم يكنْ يَعهدها، فسأل زوجته: ما أعددْتِ لنا مِن طعام على الغذاء ؟ فأجابته: ما سَوف تراه! فلما وَضعتِ الطبق على المائدة، وجدَ فيه كتابَ صاحبه الذي أعاره إياه مُحترقاً! أحرقتهُ زوجته من شدة غيظها وغضبها منه حيث لم يلتفت إليها ليلة البارحة، فوُقع في يده، واغتمّ ممّا جرى، فقام وأخذ قلما وأوراقاً، وصار يكتب ما علق بباله من مطالعته للكتاب، ثم ذهب به لصاحبه الفقيه، وقال له: أنظر هل ينقص منه شيء ؟ فتصفحه صاحبه وقال له: لا، لا ينقصُ منه شيء !

فعجِبتُ من الحكاية، حيث لم يَسبقْ لي أن رأيتُها في كتاب أو سمعتُها في خِطاب، مع أنني قرأتُ ترجمة القاضي عياض في العديد من المؤلفات، فسألتُه مُبدياً تعجبي واستغرابي: وأينَ يا سيدي عثرتَ على هذه الحكاية ؟! رجوتُ بذلك أن أضيفها إلى رسالتي هاته وأن أعزوها للمرجع الذي استقاها منه الشيخ، فأجابني حفظه الله قائلا: «هذا مِمّا حدّثنا به شيوخنا». اهـ

فهي إذنْ مِمَا تناقله الشيوخ ولم يُسَطّر في كِتاب، وكمْ لها من مثيلات وأخوات لا يفوزُ بها إلا مَن طرق الباب مُتحليا بالآداب، وجلس على الركب في حِلق الشيوخ، ولم يَستغن عن الأخذ عنهم بما يراه في دفتر أو يجده في كتاب.

ـ ثلاث حكايات عن اهتبال العلماء بالكتب:

ثم إنّ ما رُوي هنا عن القاضي عياض يدل على عظيم اهتباله رضي الله عنه بالعلم الذي سكن كل جوارحه وشغل كل تفكيره، حتى منعه الكتاب منَ الالتفات لزوجته والاهتمام بها، وفي حكايات علمائنا ما يُشابهها ويُقاربها، وهذه بعض الأمثلة أتينا بها لطرافتها، تسلية لمن قد تكون تزوجت مثلهم:

* قال القاضي عياض في «ترتيب المَدارك»، عند ترجمته للإمام الفقيه الورع الخاشع عبد الله بن أبي القاسم بن مسرور التجيبي، المعروف بابن الحجام، والمتوفى سنة ٣٤٦ هـ: «قال أبو بكر بن عبد الرحمن: بلغني أنّ أهله اشتروا له جارية، فزينوها وأدخلوها عليه، فلما كان الليل، أخذ الكتاب، وكتب الليل كله، ولم يلتفت إليها، وأقام على ذلك نحوا من شهر، فلما طال على الجارية ذلك، قالت له: إنْ كان ليس لك غرض في فبِعني، فقال لها: مَنْ أنت؟ قالت: جاريتك، قال: أنا ما اشتريتُ جارية! امضِ إلى من اشتراك يَبعكِ، ففعلتْ، فقام على حاله إلى أن مات»[1].

* وقال الشيخ سلمان بن الشيخ العلامة عبد الفتاح أبو غدة في زياداته على ما كتبه والده في كتابه النفيس «قيمة الزمن عند العلماء»: قال العلامة محمد أحمد الشاطري في رسالة أرسلها إلى الوالد رحمهما الله تعالى عقب قراءته لهذا الكتاب في طبعته الخامسة: «وتذكرتُ ما وقع للعلامة المفتي الحبيب عبد الله بن عمر بن يحيى باعلوي المتوفى بحضرموت سنة ١٢٦٥، وقد زُفت إليه زوجته، ولمّا دخل غرفة الزفاف وجد عندها بعض الماشِطات، وذلك أثناء الليل، فتناول كتاب «الإرشاد» للشيخ إسماعيل بن المقري اليمني الشافعي المتوفى سنة ٨٣٧،

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (٢ / ٤٥).

وخرجتِ الماشطات، ولكنه استغرق في مُطالعة ذلك الكتاب عدة ساعات إلى أذان الفجر، والعروسة مسندة، ولم يلتفتْ إليها طوال تلك المدة لانشغاله بالعلم الذي هو أهم عنده من العروس. ولله دَرّ الزمخشري حيث يقول:

سهري لتنقيح العلوم ألذُّ لي ... من وصل غانية وطيبِ عناق
وألذُّ من نقر الفتاة لدُفّها ... نقْري لأُنْقي التُّرْبَ عن أوراقي[1]

* وكتب شيخ الجماعة العلامة الوزير سيدي محمد المختار السوسي رحمه الله تعالى في كتاب «مِنْ أفواهِ الرجال» يقول: «ها أنتذا في هذه الساعة، ولم يبقَ مستيقظا في دارنا ولا في ديار جيراننا إلا أنا، وهذه الشمعة التي تنضنض بلسان الأفعى، فترسل لي من ضوئها الباهت، فأقنع به حيث حُرمتُ الكهرباء المشعة، حتى أني لأبتهج به، وأشكر الله على وجوده، ومَن قرّ عينا بعيشه نفعه، ها أنذا مستندا وقرينتي[2] تقرأ لوحتها مِنْ سورة: «أفلا يعلم»، وهي تنتظر أنْ

---

(١) قيمة الزمن عند العلماء (ص ١٤٧).

(٢) ولدت هذه السيدة الطيبة سنة ١٣٣٧هـ، والدها هو الشريف الحاج إبراهيم بن محمد بن اليزيد التازروالتي، أحد أصحاب الشيخ العارف الحاج سيدي علي الإلغي الدرقاوي، تزوجها العلامة المختار السوسي سنة ١٣٥١هـ، ونعتها في بعض مؤلفاته بـ: «سيدة النساء، الصبورة، الكريمة، الديّنة، الحازمة، الصموت، السيدة» ـ كما في السيرة الذاتية (ص ٩٢) ـ وقد رُزق منها بأبناء ذكور وإناث، وكما كانت أما لأبنائه كانت أيضا أما للطلبة الذين يفدون على مدرسته، تطبخ لهم وتعتني بهم، وقد صبرتْ مع زوجها في محنته أيام الاستعمار الفرنسي حين سُجن وعندما نُفي، فكانت نِعْم المثال للمرأة المغربية. توفيت رحمها الله ضحى يوم السبت ١٥ صفر سنة ١٤٢٦هـ، موافق ٢٦ مارس ٢٠٠٥م، ودُفنت بمقبرة الشهداء بالرباط غير بعيد عن قبر زوجها العلامة. وقد ألف الأستاذ رضى الله عبد الوافي المختار السوسي في ترجمتها كتابا صدر حديثا عنونه «أم الطلبة: استحضار مجريات حياة أرملة العلامة رضى الله محمد المختار السوسي».

أقوم إلى المضجع، حتى غلبها النعاس، فانقلبتْ ممتدة من غير أن تستوي في مكانها، والحمد لله على أنّها ليست عصْرية، ولا بنظيرة زوجة الأديب إبراهيم عبد القادر المازني، وإلا لمالتْ تمزيقا على هذه الأوراق التي استدارت بي منذ الصباح، وقد أكببتُ فيها على الكتابة، حتى كتبتُ كرّاسين في هذا القالب الصغير، ولم تفز منّي إلا ببضع كلمات أو ببضع بسمات، الله أعلم كيف أُلْقِيها عليها، لأني جسمي معها، وقلبي مع إخواني بمراكش»[1].

وإنّ في انشغال العلماء بالكتب وتنزُّه قلوبهم في رِياضها الخير الكثير على العلم والأمة، لكن قد يُنسيهم عِشقهم للكتاب وما يجدونه من اللذة عند خلوتهم به مُراعاة جانب زوجاتهم، فيُفرّطون في الاهتمام بقضاء بعض حاجاتهن، وليس بقليل مِنَ النساء مَن كانت ترى أن تلك الكتب أشد عليهن من عدة ضرائر!

روى الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»، في ترجمة العلامة النسابة الزبير بن بكار، المتوفى عام ٢٥٦هـ عن موسى المارستاني قال: «حدثنا الزبير ابن بكار قال: قالت ابنةٌ لأخي لأهلنا: خالي خيرُ رجل لأهله، لا يَتّخذُ ضرةً، ولا يشتري جاريةً. قال: تقول المرأة: والله لهذِه الكتُب أشدُّ عليّ من ثلاث ضرائر»[2].

وفي كتاب «أخبار الظراف والمتماجنين» للحافظ ابن الجوزي: «قال أبو القاسم عُبيد الله بن عمر البقال: تزوّج شيخنا أبو عبد الله ابن المُحَرَّم

---

(١) السيرة الذاتية للعلامة رضى الله محمد المختار السوسي (ص ١٤٤).

(٢) تاريخ بغداد (٩/ ٤٩١)، أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزي (ص ١٤٧).

وقال لي: لما حُمِلتْ إليّ المرأةُ جلستُ في بعض الأيام أكتُب شيئا على العادة، والمِحْبرة بين يديّ،فجاءتْ أمّها، فأخذت المِحبرة، فضرَبتْ بها الأرض، فكسرتْها، فقلتُ لها في ذلك ؟! فقالتْ: هذه شرٌّ على ابنتي من ثلاث مئة ضرة»[1].

ـ حكاية زوجة الأمير مبشر بن فاتك التي أغرقت كتب زوجها:

وقد يجْني انغماسهم في القراءة والبحث والتنقيب بين دفتي الكتب لساعات طويلة كل يوم على العِلم نفسه! وذلك بأنْ يُصيب الكتاب الذي سلبَهُن قلوب أزواجهن إمّا: الحرقَ، وقد سبقتْ حكاية القاضي عياض مع زوجته، وإمّا الغرَق، وهذه حكاية في ذلك:

قال الشيخ العلامة سيدي عبد الحي الكتاني[2] رحمه الله في كتاب «تاريخ المكتبات الإسلامية ومَن ألف في الكتب»: «ومِن المشتغلين بجمع الكتب على عهد الفاطميين بمصر: الأمير محمود الدولة أبو الوفاء مبشر بن فاتك الآمدي،

(١) أخبار الظراف والمتماجنين (ص ١٤٧).

(٢) هو مسند الدنيا الشيخ العلامة الحافظ سيدي عبد الحي بن الإمام عبد الكبير الكتاني الحسني، ولد بفاس سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م، أخذ العلم عن والده وعن شقيقه الإمام محمد بن عبد الكبير الكتاني، وعن الشيخ محمد بن جعفر الكتاني وعن غيرهم من علماء المغرب والمشرق، خلف العديد من المؤلفات في مختلف الفنون، نذكر منها: فهرس الفهارس والأثبات، التراتيب الادارية، وغير ذلك. توفي رحمه الله بمدينة نيس بفرنسا سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م. ترجمته في: التأليف ونهضته بالمغرب (ص ١٦١)، منطق الأواني بفيض تراجم عيون أعيان آل الكتاني (ص ١٤١). وأفرده بالترجمة العلامة عمر بن الحسن الكتاني بكتاب عنونه: مطالع الأفراح والتهاني وبلوغ الآمال والأماني في ترجمة الشيخ عبد الحي الكتاني.

مِن أعيان أمراء مصر ومن أفاضل علمائها، ترجمه ابن أبي أصيبعة فقال: كان كثير الكتابة، وقد وجدتُ بخطه كتبا كثيرة من تأليف المتقدمين، وكان مبشر بن فاتك قد أمْلى كتباً كثيرة جداً، وكثير منها يوجد، وقد تغيرتْ ألوان الورق الذي لا يعرف أصله، وحدثني الشيخ سديد الدين المنطقي بمصر قال: كان الأمير ابن فاتك محبا لتحصيل العلوم، وكان له خزائن كتب، فكان في أكثر أوقاته إذا نزل من الركوب لا يفارقها، وليس له دأب إلا المطالعة والكتابة، ويرى أن ذلك أهم ما عنده. وكانت له زوجة كبيرة القدر أيضا مِنْ أرباب الدولة، فلما توفي، نهضتْ هيَ وجوار لها إلى خزائن كتبه، وفي قلبها من الكتب وأنه يشتغل بها عنها، فجعلتْ تندُبُه، وفي أثناء ذلك تَرْمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هيَ وجَواريها، ثم شيلت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق أكثرها، فهذا سبب أنّ كتبه يوجد كثير منها وهي بهذه الحال»[١].

* * *

(١) تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب (ص ٣٨).

* ومنهم:

ـ صاحب قصيدة البردة الإمام البوصيري رحمه الله:(١)

قال رحمه الله يشكو زوجته الوَلود، التي كانتْ تُعيّبه بالفقر والشيْب، ممّا اضطرّه لمدح ذوي السلطة والجاه طلباً لنَوالِهِمْ واستجداءً لعطاياهم:

وبَلِيتــي عِـرْسٌ بُليـت بِمقـتِها ... والبَعـلُ مَـمقوتٌ بـغَـير قيـامِ

جعلَتْ بإفلاسـي وشَيبِيَ حُجَّة ... إذا صِـرتُ لا خلفي ولا قدامي

بلَغَتْ من الكِبرِ العُتي ونُكِّستْ ... في الخَلقِ وهْيَ صَبِيَّةُ الأَرحـامِ

إنْ زرتُها في العامِ يوماً أنْتَجتْ ... وأتَـتْ لِسِـتَّة أشـهرٍ بِغُـلامِ

أوَ هـذه الأولاد جـاءت كلهـا ... مـنْ فِعْلِ شَـيْخٍ ليسَ بالقَوَّامِ؟

وأظـنُّ أنّهُـم لعُـظْـمِ بَليَّتـي ... حَمَلَتْ بِهِمْ لا شكَّ في الأَحلامِ

أوَ كل ما حلُمَـتْ به حَمُلتْ به ... مَـن لـي بـأنَّ النـاس غيرُ نيامِ

يـا ليتهـا كانـت عقيمـاً آيِسـاً ... أو ليتني مِـن جملـة الخـدّامِ

أو ليتنـي من قبـل تزويجي بها ... لو كنـتُ بِعْـتُ حَلالهـا بِحَرامِ

أو لَيْتَني بعـضُ الذيـن عَرَفْتُهُمْ ... مِمــنْ يُحَصّـنُ دينـهُ بِغُلامِ

كيفَ الخَلاصُ مِنَ البَنِين وَمِنْهُمُ ... قــومٌ وَرايَ وَآخَـرُونَ أمـامِي

---

(١) أصله من قبيلة صنهاجة، إحدى القبائل المغربية، ولد بقرية دلاص إحدى قرى بني سويف من صعيد مصر سنة ٦٠٨ هـ، حفظ كتاب الله في صغره، وأخذ عن العديد من أعلام وقته، كان يجيد الخط ويُعلّمه للراغبين، و كان ينظم الشعر، وله فيه القصائد المشهورة المعروفة، كالبردة والهمزية وغيرها، توفي رحمه الله بالإسكندرية سنة ٦٩٥ هـ.

لَمْ يُـرْزَقِ الرِّزْقَ المُقِيـمُ بأَهْلِهِ　　شـكوا عنا بُعدي وفقـرَ مقامي

فارَقْتُهُــمْ طَلَبــاً لِـرِزْقِهِـمُ فلا　　صَرفي يسرّهُمُ ولا اسـتخدامي

مَـن كـان مثلـي لِلعيـال فإِنّــهُ　　بَعْـلُ الأَرامِــلِ أو أبـو الأَيْتَـامِ

أصبحتُ مِن حملي هُمومِهمُ على　　هَرمـي كـأني حامـلُ الأهْـرامِ

* * *

ـ بعض ما قيل في شيب الرجال:

قلتُ: الشيبُ في الرجال لدى النساء عيبٌ من العيوب.

قال امرؤ القيس[١]:

أُراهِـنُ لا يحببن مَن قلّ مالُــه ولا من رأين الشيب فيه وَقَـوّسَا[٢]

ومِن شِعر الإمام المقرئ أبو عمرو بن العلاء[٣]:

وأنكرتني وما كان الذي نَكِرتْ من الحوادثِ إلا الشّيبَ والصّلعا[٤]

لكنه عيبٌ تابعٌ لعيبِ الفقر، إنْ حَضر الفقر ظهَرْ، وإنْ كان الزوج غنياً ثرياً له مالٌ وَجَاهٌ، سُتِـر عيبه ذاكَ ولـم يُذكرْ، بل عُـدَّ مَنقبةً تُضاف ومزية يُشار إليها!

قال ابن الساعي في كتاب «نساء الخلفاء»: «حَدّث أبو الفرج الأصفهاني عن عَرَفة وكيل بِدْعة[٥] قال: لما قدمَ المعتضدُ من الشام ومعه وصيفٌ الخادم،

---

(١) من سُباق شعراء الجاهلية، توفي سنة ٨٠ قبل الهجرة.

(٢) ديوان امرؤ القيس (ص ١١٢). ومعنى كلمة قوّسا أي: انحنى ظهره كأنه قوس، دلالة على الشيخوخة.

(٣) هو أحد القراء السبعة، كان إمام أهل البصرة في القراءات والنحو واللغة، أخذ عن جماعة من التابعين، وأخذ عنه خلق من الناس، توفي رحمه الله سنة ١٥٤ وقيل سنة ١٥٩هـ. له ترجمة في: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (٢/ ٢٣١ رقم: ١٨٦٤)، وطبقات النحويين واللغويين لمحمد بن الحسن الزبيدي (ص ٣٥ رقم: ٩).

(٤) بغية الوعاة (٢/ ٢٣١).

(٥) بدعة الكبيرة، جارية عريب مولاة المأمون، كانت أحسن دهرها وجها، وكانت تُغنّي وتقول الشعر، توفيت رحمهما الله سنة ٣٠٢ هـ. ترجمتها في: نساء الخلفاء لابن الساعي (ص ٦٣ ترجمة رقم: ٧)، المستطرف من أخبار الجواري للإمام السيوطي (ص ٨ ترجمة رقم: ٣).

دَخلتْ إليه بدعة في أوّل يوم جلس فيه، فقال لها: يا بدعةُ، أما تريْن الشيب كيف قد اشتعل في لحيتي ورأسي ؟ فقالت: يا سيدي، عَمّرك الله أبداً حتى ترى وُلد وَلدك قد شابُوا، فأنت في الشيْب أحسن منَ القمر. وفكّرَتْ طويلاً حتى قالتْ هذه الأبيات:

ما ضَـرّك الشيبُ شيئاً ... بـل زِدتَ فيه جمـالا
قـد هـذبَتكَ الليـالي ... وزدتَ فـيـها كـمـالا
فعشْ لنا فـي سـرور ... وانعَـمْ بعيشـك بـالا
تـزيـد في كـل يـوم ... ولـيـلـة إقـبـالا
فـي نـعـمةٍ وسُـرور ... ودولـة تـتعـالـى

قال: فوصلها في ذلك اليوم صِلة سنيّة.

وحدث عن عرفة أيضاً قال:

لما قدم المعتضد من حرب وَصيفٍ، وجاء به، دخلتْ عليه بدعةُ فقالت: يا سيدي، قد شيّبتك والله هذه السفرة. فقال لها: دُونُ ما كنت فيه يُشيبُ. فلما انصرفتْ قالتْ هذا الشعر وغنّتهُ:

إن تكـن شِـبْـتَ يا مليـكَ البرايا ... لأمـور عانيْـتـها وخُطـوبِ
فلقـد زادك المشـيـبُ جـمـالا ... والمشيبُ البادي كمـالُ الأديبِ
فابقَ أضعافَ ما مضى لك في عِـزّ ... ومُلـكٍ وخفـضِ عيـشٍ وطيبِ

فطرب المعتضد، ووصَلها، وخلع عليها[1].

---

(١) نساء الخلفاء لابن الساعي (صفحات: ٦٤-٦٥-٦٦)، المستطرف من أخبار الجواري =

فمنْ كان فقيراً مُعدماً وَلّدَ فقرهُ العيوب، وأظهر منها للنساء ما كان خفياً.

ومنَ الأمثال المغربية، قولهنّ: «الرجل لا يُعيّـبُهُ سِوَى جيبُه»، والمعنى واضح لا يحتاج لشرح.

❋ ❋ ❋

= للإمام السيوطي (ص ٩ وص ١٠).

* ومنهم:

ـ الإمام عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة رحمه الله[١]:

قال الإمام الذهبي في «تاريخ الإسلام» عند ترجمته لهذا الإمام: «كانتْ له جارية تؤذيه بخُلقها، فما كان يقول لها شيئاً، وكذلك غيرها من نسائه.

وسمعتُ البهاء عبد الرحمن يقول: لمْ أر فيمن خالطتُ أجمل منه ولا أكثر احتمالا»[٢].

* ومنهم:

ـ العلامة علي بن أحمد الحَرالّي التجيبي رحمه الله[٣]:

نقل العلامة المؤرخ سيدي العباس بن ابراهيم في ترجمته، في كتاب «الإعلام بمَنْ حلّ مراكش وأغمات من الأعلام»، عن الإمام الذهبي أنه رحمه الله تعالى قال: «قال لنا شرف الدّين البارزي: تزوّج بحماة، وكانتْ زوجته تشتُمه وتُؤذيه، وهو يتبسم ويدعو لها، وإنّ رجلا راهن جماعة على أن

---

(١) من كبار علماء الحنابلة وزهادهم، له عدة مؤلفات، منها: العمدة، المقنع، التوّابين، المغني وغير ذلك. توفي رحمه الله يوم الفطر سنة ٦٢٠ هـ، ودفن في دمشق. ترجمته في: تاريخ الاسلام للذهبي (ص ٤٨٣ رقم: ٦٦٧) المجلد الذي فيه حوادث سنة ٦١١ هـ إلى سنة ٦٢٠ هـ.

(٢) تاريخ الإسلام (ص ٤٩٠) المجلد الذي فيه حوادث سنة ٦١١ هـ إلى سنة ٦٢٠ هـ.

(٣) الشيخ الفقيه، العالم الزاهد الصوفي الورع، صاحب الكرامات والمكاشفات، ولد بمراكش، من مؤلفاته: مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل، وشرح الموطأ، وشرح الشفا، وشرح الأسماء الحسنى وغير ذلك. توفي رحمه الله بالشام سنة ٦٣٧ هـ، وقيل سنة ٦٣٨ هـ. ترجمته في: سير أعلام النبلاء (٢٣ / ٤٧ رقم: ٣٣)، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام (٩ / ١٠١)، نفح الطيب (٢ / ١٨٧ رقم: ١١٥).

يُحرجه، فقالوا: لا تقدر، فأتاه وهو يَعظ وصاح وقال له: أنت أبوك كان يهودياً وأسلم، فنزل من الكرسي، فظن الرجل أنه غضب، وأنه تمّ له ما رامه، فوصل إليه، فخلع مرطيه عليه وأعطاه له، وقال: بَشّرَك الله بالخير لأنك شهدتَ لأبي بالإسلام»[١].

وقال الإمام المقري في ترجمته له، في كتاب «نفح الطيب»: «وأصبح رحمه الله تعالى ذات يوم؛ ولا شيءَ لأهله يُقيمون به أودهم[٢]، وكانت أم ولده جارية تسمى كريمة، وكانت سيّئة الخلق، فاشتدتْ عليه في الطلب، وقالت له: إنّ الأصاغر لا شيءَ لهم، فقال: الآن يأتي مِنْ قِبل الوكيل ما نتقوتُ به، فبينما هم كذلك وإذا بالحمال يضرب الباب ومعه قمح، فقال لها: يا كريمة ما أعجلك ! هذا الوكيل بعث بالقمح، فقالت: ومن يصنعه ؟ فأمر فتصدق به، ثم قال لها: يأتيك ما هو أحسن منه، فانتظرت يسيراً، وبدا لها فتكلمت بما لا يليق، فبينما هم كذلك وإذا بحمال سميذ، فقال لها: هذا السميذ أيْسَر وأسْهل من القمح، فلم يقنعها ذلك، فأمر أيضاً بصدقته، فلما تصدق به زادت في المقال، وإذا برجل على رأسه طعام فقال لها: يا كريمة، قد كُفيتِ المؤونة، هذا الوكيل قد علم بحالك»[٣].

* * *

(١) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام (٩/ ١٠٦).

(٢) أي: يسدّون به رمقهم.

(٣) نفح الطيب (٢/ ١٨٨).

* ومنهم:

ـ الإمام العارف بالله عبد العزيز الديريني رحمه الله[١]:

وهو القائل في أبياتٍ شِعْرية نظمَها:

تزوجتُ اثنتين لفرط جهلي	عسى بزواجهن تقرّ عيني
فقلتُ أعيش بينهما خروفاً	لأنعمَ بين أكرم نعجتين
فجاءَ الحالُ عكس الحالِ دوماً	عذابٌ دائم ببليتين
رضا هَذي يَجرك سُخط هَذي	فلا أخلو من إحدى السّخطتين
لهَذي ليلة ولتلك أخرى	نِقارٌ دائمٌ في الليلتين
إذا ما شئتَ أن تحيا سعيداً	من الخيرات مملوء اليدين
فعش عزباً وإنْ لم تستطعه	فواحدة تكفي عسْكرين[٢]

* * *

(١) عالمٌ أديبٌ، وعارفٌ شهير، أخذ عن سلطان العلماء العز بن عبد السلام وعن غيره ممن عاصره، وأخذ التصوف عن ابن أبي الغنائم وبه تخرّج، له عدة مؤلفات في الفقه والتصوف، توفي رحمه الله سنة ٦٩٤ هـ، وقيل سنة ٦٩٧ هـ، وقيل غير ذلك. ترجمته في: الطبقات الكبرى (١/ ٣٦١ رقم:٢٩٣)، الكواكب الدرية (٢/ ١٧٨ رقم: ٥٢٣).

(٢) الكواكب الدرية (٢/ ١٧٩).

* ومنهم:

ـ الإمام الحافظ شمس الدين الذهبي رحمه الله [(١)]:

قال العلامة صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي في كتاب «نكت الهميان في نكت العُميان»: وأنشدني لنفسه ومِن لفظه أيضا:

لـوْ أن سُـفيان علـى حفظه   في بعض همّي نسـيَ الماضي
نفسِي وعِرسي ثم ضرسي سعوا   في غربتي والشيخ والقاضي [(٢)]

والعِرْسُ: الزَّوْجُ، يُقال: هو عِرسُها، وهي عِرسُهُ، وهما عِرْسانِ.

ولعلّ الحافظ الذهبي قال هذا في أواخر حياته، حيث «كان قد أضرّ قبل موته بأربع سنين أو أكثر بماءٍ نزل في عينيه، فكان يتأذى ويَغضب إذا قيل له: لو قدحت هذا لرجع إليك بصرك، ويقول ليس هذا بماء، وأنا أعرف بنفسي لأنني مازال بصري ينقص قليلا قليلا إلى أن تكامل عدمه»[(٣)]، فلعله غضب يوما لسببٍ ما، فقلَّ صبر أهله عليه وأسمعوه بعض ما يكره، فقال ما قال، والله أعلم.

---

(١) هو الشيخ الشهير، الإمام الحافظ المقرئ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، أخذ العلم عن كبار علماء وقته، وترك العديد من المصنفات في مختلف العلوم، وكانت وفاته رحمه الله سنة ٧٤٨هـ. ترجمته في: طبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٥٤٧ رقم: ١١٤٦)، نكت الهميان (ص ٢٤١)، فهرس الفهارس (١/ ٤١٧ رقم: ٢٠٩).

(٢) نكت الهميان (ص ٢٤٣)، وذكرهما الشيخ الحافظ سيدي عبد الحي الكتاني في: فهرس الفهارس والأثبات (١/ ٤٢٠)، وقال عليه الرحمة والرضوان:«أنشدهما له الكتبي في: فوات الوفيات».

(٣) نكت الهميان (ص ٣٤٢).

* ومنهم:

ـ الشيخ العارف بالله عثمان الخطاب رحمه الله [١]:

قال الإمام الشعراني في «الطبقات الكبرى» عند ترجمته: «أخبرني سيدي الشيخ نور الدين الشّوني رضي الله عنه، أنه جاوَرَ عنده مُدة، فخرج يتوضأ ليلا، فوجد رجلا ملفوفاً في نخ [٢] في طريق الميضأة، فقال له: قُمْ، ما هُو مَحل نوم! فكشفَ عن وجهه وقال: يا أخي، أنا عثمان، أخرجتني أمُّ الأولاد، وحلفتْ أنها ما تُخليني أنام في البيت هذه الليلة. وكانتْ مُسلطة عليه، وكذلك امرأة صاحبه عثمان الدِّيمي» [٣].

وقال الإمام المناوي في ترجمته في «الكواكب الدرية»: «كانت أمّه تضربه على رأسه وأكتافه، وترفع صَوتها عليه فلا يتأثر. وابتليَ بزوجته، فكانت تؤذيه كثيراً، وتَخْرجه أحياناً في الليل وتقول: ما أذنتُ لك أن تنام على فراشي، فينام في الطريق، ويقول: أخشى أن أنام في الزاوية فيخرج مني ريح وأنا نائم» [٤].

* * *

---

(١) توفي رحمه الله سنة نيف وثمانمئة. ترجمته في: الطبقات الكبرى للشعراني (٢/ ١٩٦ رقم: ٣٣٠)، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية (٢/ ٣٧٦ رقم: ٧٠٥).

(٢) النخ: بساط طويل.

(٣) الطبقات الكبرى (٢ / ١٩٨).

(٤) الكواكب الدرية (٢ / ٣٧٧).

* ومنهم:

ـ الشيخ العابد محمد السروي رحمه الله[١]:

قال الإمام الشعراني في ترجمته في «الطبقات الكبرى»: «كان مبتلى بزوجته، يخاف منها أشد الخوف، حتى كان يُخلي الفقير في الخلْوَة، فتُخرجه مِن الخلوة بلا إذنٍ من الشيخ، فلا يقدر يتكلم»[٢].

وقال في «لواقح الأنوار القدسية»: «وكذلك رأيتُ زوجة سيدي الشيخ محمد بن أبي الحمايل السّروي تشتمه وتُخرجه عن طريق الفقر ويَخافُ منها»[٣].

وقال الإمام المناوي رحمه الله في ترجمته في «الكواكب الدرية»: «كان مُبتلى بالأذى من زوجته، مع قدرته على إهلاكها، فربما أدخلَ فقيراً الخلوة فتُخرجهُ قبل تمام المُدة، وتقول: قال لك فلان أنا ما أعمل شيخاً، فلا يتكلم»[٤].

* * *

(١) المشهور بأبي الحمائل، وكان من العُباد، قال عنه المناوي: كان طوداً عظيماً في الولاية. توفي رحمه الله سنة ٩٣٢هـ. ترجمته في: الطبقات الكبرى للشعراني (٢/ ٢٣٠ رقم: ١١)، والكواكب الدرية للمناوي (٢/ ٥١١).

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ٢٣٠).

(٣) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية (ص٢٦١).

(٤) الكواكب الدرية (٢/ ٥١١).

* ومنهم:

ـ العارف بالله الشيخ الشهير سيدي علي الخواص رحمه الله:

قال تلميذه الخاصّ الإمام الشعراني رحمه الله تعالى في «العهود المحمدية»:

«كانتْ زوجة سيدي علي الخواص تهجُره الثلاثة أشهر وأكثر، وهجرَته شهراً لكونه سقى دجاجها من الماء المكشوف، وغلط مرة فشرب من قُلتها فحكّت موضع فمه بشقفة حتى لا تضع فمها موضع فمه، وسافر بها إلى الحجاز وهي هاجرة له، فسافر بها من مصر ورجع من غير أن يقع بينها وبينه كلام. ثم لمّا ماتت، تبعها براية بيضاء أمام نعشها، مع أنه أخبرني في مرض موته، بأنّ له سبعاً وخمسين سنة من حين دخل بها، لم ينمْ معها ليلة واحدة وهما مُصطلحان»[1].

وكان يجيب من يقول له طلّقها: «الظلم مِنْ نفسي لا منها، لأنها صورة عملي»[2].

فلله دَرّه مِن إمام صالح، ما كان أحلمَه، فأين من يستطيع اليوم تحمل مثل ما كان يتحمله ؟!

شعر:

ليستِ الأحلام في حال الرضا   إنّما الأحلام في حال الغضب[3]

---

(١) لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية (ص ٢٦١)، وانظر منه أيضاً: (ص ٣٦٣).

(٢) المنن الكبرى (ص ٣٩٦).

(٣) كان التابعي الجليل الإمام الشعبي رحمه الله مولعاً بهذا البيت، نقل ذلك شهاب الدين الأبشهي في المستطرف (١ / ٣١٧).

* ومنهم:

ـ العالم العارف سيدي عبد الوهاب الشعراني رحمه الله[(١)]:

وقد مرّ ما ذكره عن نشوز زوجته وعصيانها له، ومع ذلك تراه يقول عليه الرحمة والرضوان: «ومِمّا أنعمَ الله تبارك وتعالى به عليّ: كثرة صَبري على زوجتي وجاريتي إذا مَرضتْ، ولا أستنكفُ من أن أمسح ما تحتها من قاذورات إذا عجزَت عن الذهاب إلى الخلاء»[(٢)].

فعَدّ ذلك مِن النعمِ التي أنعمَ الله بها عليه والتي تحتاج إلى الشكر! وهذا حقاً خلقٌ عجيب.

فرحمة الله تعالى على تلك النفوس الشريفة اللطيفة الصافية العفيفة.

شعر:

والمرءُ لا يُشكر عنْ بَغْيِهِ وإنّما يُشكر عنْ عقله

* * *

(١) أخذ عن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، والإمام القسطلاني وغيرهم، وعمدته في السلوك العارف علي الخواص، من مؤلفاته: الطبقات الكبرى، المنن الكبرى، العهود المحمدية وغير ذلك، توفي رحمه الله سنة ٩٧٣هـ. ترجمته في: الكواكب الدرية (٢/ ٤٧٩ رقم: ٧٩٠). وقد أفردت ترجمته بالتأليف.

(٢) المنن الكبرى (ص ٣٦٩).

* ومنهم:

ـ العالم العارف سيدي أحمد بن عجيبة رحمه الله[١]:

وقصّته مع زوجِهِ مِنْ أعجب ما تقرأ، وكأنّ زوجته اطلعتْ على قصص مَن مرّ من النسوة، فسعتْ للإقتداء بهن فيما فعلن بأزواجهن مع زوجها الإمام ابن عجيبة.

واستمع إلى ما وقع له معها يَرويه الإمام بنفسه في «فهرسته»، قال رحمه الله: «وقد مرّ علينا شيء من جفاهن وإذايتهن، فصبرنا والحمد لله.

ـ فمن ذلك: أنّي كنتُ ذات يوم في خلوتي في موضع عال، فغضبَتْ بعض نِسائي وحرّكتها الغيرة، فصعدَتْ إليّ ولبّبَتْني[٢]، وأنزلتني دَرْدَبَة[٣]، ثم أخرجتني عن باب الدار وشدّت الباب وزَرّقتها[٤] خلفي، فبِتّ خارج الدار.

ـ ومِن ذلك: أني رَقدتُ يوماً على لِحافها، فجذبتهُ من تحتي ورَمَتْ بي إلى الأرض.

ـ ومِن ذلك: أني أتيتُ لها ذات يوم بجُبنتين طريّتين في وِعاء، فوجدتُها غضبى، فعجنتْهُما برجلها ثم رَمتْ بهما وَجهي، وكنتُ جالساً فضربتْ رأسي في الحائط ضَرباً شديداً.

---

(١) عالمٌ عارفٌ، ومُفسر فقيه، له عدة مؤلفات في شتى الفنون، أخذ عن الشيخ العارف مولاي العربي الدرقاوي وعن تلميذه الشيخ سيدي البوزيدي، وأخذ الفقه والعلوم الشرعية عن علماء تطوان وفاس. توفي رحمه الله بمدينة غمارة شمال المغرب سنة ١٢٢٤هـ.

(٢) لبّب خصمه: جمع ثيابه عند نحره وجرّه.

(٣) دردبة أي: دحرجة.

(٤) زرّق: أوصد الباب بقفل أو غيره.

وأما السّبّ والدُّعاء فلا يُعدُّ ولا يُحصَى»(١).

والغريب أنه مع كلّ هذا، نرى هذا الإمام الجليل ـ لجميل أخلاقه وكريم خصاله ـ يتخذُ لزوجته تلكَ العُذر! حيث قال مباشرة بعد إيراده لما جرى له معها ما نصّه: «وصاحب الغيْرة معذورٌ في كل ما يصدُر منه، أرأيتَ لو رأيتَ امرأتك تذهبُ إلى غيرك يلعب بها هل كنت تصبر؟ فالأمر واحد، فكما لا يصبر الرجل على رؤية امرأته مع غيره؛ لا تصبر المرأة على زوجها تراه مع غيرها. فكل ما يصدر من الغيرة حين هيّج غيرتها محمول لمن له عقل وحِلم. وذَكَرَ في «الجامع الصغير»(٢) حديثاً أنّ: «الغيرة ملحقة بالشهداء»(٣)، فلا تُسأل في قبرها. والله تعالى أعلم»(٤).

فكان من حُسن حظّها رحمها الله، أنّ زوجها رجل عالم رباني حكيم، وهو الذي يقول: «لا يُسمَّى صبر الرجل على أذى امرأته وجفاها ذُلا ولا غلبة له، إنما هو حِلم وتكرّم وسترٌ للعِرض، وإلا فأي قوة للمرأة حتى تغلب الرجل؟! لذلك قيل لا يَغلِبن إلا الكرام، ولا يَغلبهُن إلا اللئام، وتسمية صبره لها غلبة مَجاز»(٥).

---

(١) الفهرسة (ص ٨٣).

(٢) كتاب الجامع الصغير للإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله، هو من أنفع الكتب الحديثية ومن المراجع المهمة في هذا الباب التي يعتمد عليها طلاب وعلماء الحديث.

(٣) روى الإمام ابن أبي الدنيا في العيال (ص ١٨٦ ح ٥٥١) عن الإمام مجاهد أنه رحمه الله قال: «جُعل الجهاد على الرجال، والغيرة على النساء، فمن صبر منهن واحتسب كان لها أجر نصف مجاهد».

(٤) الفهرسة (ص ٨٣).

(٥) المصدر السابق (ص ٨٣).

شعر:

وجهلٌ رددناه بفضل حُلومنا ولو أننا شئنا رددناه بالجهل

وعَنْ مثل هذا السيد الكريم الجميلة أخلاقه وفِعاله يبحثُ الرجال كي يتخذوهم أزواجاً لبناتهم فلذات أكبادهم، ففي الحديثِ المرفوع: «النكاح رقّ، فلينظر أحدكم أين يضع كريمته»(١).

ثم ليحذر القارئ أنْ يُنقصّ مِنْ قدْر تلك الزوجة، أو ينال منها ويدعو عليها، فإنها زوجة ذلك العالم الصالح الذي نفع بعلمه الكثيرين من الرجال والنساء في حياته وبعد مماته، والذي قيل أنه بلغ درجات عالية في الوِلاية والصلاح، وإنّ للعلماء شفاعة يوم القيامة، ومثله ـ من باب الفتوة ـ يشفع في أعدائه، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بزوجته أمّ أبنائه ؟ لاشك أنه يشفع فيها.

* * *

(١) قال الإمام زين الدين العراقي في تخريجه لأحاديث «الإحياء المسمى المغني عن حمل الأسفار»: «رواه أبو عمر التوقاني في «معاشرة الأهلين» موقوفاً على عائشة وأسماء ابنتي أبي بكر رضي الله عنهم. قال البيهقي: وروي ذلك مرفوعاً والموقوف أصح». انظر: الإحياء (٢/ ٥٤).

* ومنهم:

ـ الشيخ العلامة إدريس بن علي السناني رحمه الله[١]:

قال رحمه الله يشكو زوجَته في أبيات شِعرية[٢]:

إلى الله أشكو أذَى زوجة ... تُجرِّع قلبي هموم الشّططْ

تزوّجتها طلباً للسرور ... فجاء وللسين منه نقطْ

أرى من تزوج في وقتنا ... تعرّض من فوره للسخطْ

* * *

(١) علامة أديب صوفي، أخذ عن العارف محمد بن عبد الواحد الكتاني، وعن الفقيه أحمد ابن أبي عبد الله السجدالي، وعن الصالح إبراهيم بن علي الغماري، ترك عدة مؤلفات، منها: الشهاب الكاوي لأهل التمشدق والدعاوي، تأنيس المسجونين وتنفيس المحزونين، كما له ديوان شعر سماه: الروض الفائح بأزهار النسيب والمدائح. توفي رحمه الله سنة ١٣٠٣هـ. ترجمته في: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام (٣/ ٤٢ رقم: ٣٣٩).

(٢) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام (٣/ ٤٦).

* ومنهم:

ـ الأمير المجاهد الشيخ عبد القادر الجزائري رحمه الله[1]:

يقول رحمه الله في إحدى قصائده، يصف حاله مع زوجته في أبيات طويلة، أنقلها كلها للطافتها:

أقاسي الحبّ من قاسي الفؤاد ... وأرعاه ولا يرعى وِدادي

أريد حياتها وتريد قتلي ... بهجر أو بِصد أو بعاد

وأبكيها فتضحك ملء فِيها ... وأسهرُ وهي في طيب الرقاد

وتعمى مُقلتي إن ما رأتها ... وعيناها تعمى عن مرادي

وتهجرني بلا ذنب تراه ... فظلمي قد رأت دون العباد

وأشكوها البعاد وليس تُصغي ... إلى الشكوى وتمكث في ازدياد

وأبذل مهجتي في لثم فيها ... فتمنعني وأرجع منه صاد

وأغتفر العظيم لها وتُحصي ... عليّ الذنب في وقت العداد

وأخضع ذلة فتزيد تيها ... وفي هجري أراها في اشتداد

فما تنفك عني ذات عز ... وما أنفك في... نادي

---

(١) عالم أديب شاعر، صاحب المواقف المعروفة في جهاده ضد الفرنسيين، ترك العديد من المؤلفات، منها: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، المواقف، وغير ذلك. نُفي إلى دمشق، وتوفي رحمه الله سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م في سوريا، بقصره بمصيف دمر، ونقل جثمانه إلى دمشق، ودفن بجوار مرقد الشيخ محيي الدين ابن عربي. ترجمته في: تعريف الخلف برجال السلف (٢/ ٣٠٦ رقم: ٢٧٦)، وأفرده بالترجمة الدكتور يحيى بوعزيز بكتاب مطبوع عنونه: الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري.

فما في الذل للمحبوب عار ... سبيل الجد ذل للمراد

رضا المحبوب ليس له عديل ... بغير الذل ليس بمستفاد

ألا مِن منصفي من ظبي قفر ... لقد اضحت مراتعه فؤادي

ومن عجب تهاب الأسدُ بطشي ... ويمنعني غزال من مرادي

وماذا غير أن له جمالا ... تملك مهجتي ملك السواد

وسلطان الجمال له اعتزاز ... على ذي الخيل والرجل الجواد

وهذا الفعل مغتفر وزين ... إذا يوما أبيت على ميعاد

فإن رضيتْ عليّ أرتْ محنا ... بشوشا بالملاحة ظل بادي

خليلي إن أتيت إليّ يوما ... بشيرا بالوصال وبالوداد

فنفسي بالبشارة إن ترمها ... فخذها بالطريف وبالتلاد

إذا ما الناس ترغب في كنوز ... فبنتُ العمّ مكتنزي وزادِي[1]

* * *

(١) الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري (ص ١٦٩).

* وممن ابتلي من الحكماء بزوجة تؤذيه، فصبر عليها وأظهر الحلم والعقل:

ـ الفيلسوف الزاهد انكساغورس[١]:

وهو ممن ملأ أرسطو كتبه مِن أقواله وآرائه.

قال شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري في ترجمته في كتاب «نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة»: «يُقال: إنّ امرأته خاصمته، ومكثت زماناً تُسْمِعه المَكاره، وهُو ساكتٌ مُحتمل، فاغتاظت غيظاً شديداً وكانت تغسل ثياباً، فقامتْ وصَبّتْ على رأسِه غسّالة الثياب، وكانَ في يده كتاب يطالع فيه، فوضع الكتاب مِن يَده، ثم رفع رأسهُ إليها فقال لها: أرْعدي، وأبْرقي، ثم أمْطري، ولم يزدْ على ذلك»[٢].

وقد كان هذا الفيلسوف حليماً، عاقلا، لا يَستفزه كلام السّفهاء، ومما يُحكى عنه أنه: «مرّ على رجل عريض عبل[٣] فشتمه وأفحشَ، فأعْرض عنه، فقيل له: لم لا تمتعض مِن كلامه ؟ فقال: لأني لا أتوقع أن أسمع من الغراب هديرَ الحمام، ولا منَ الكركي تغريد القمري»[٤].

---

(١) ترجمته في نزهة الأرواح (ص ٣٠١ رقم: ١٧).

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٠٢).

(٣) عبل: ضخم غليظ. رجل عَبْلُ الذراعين أي: ضخمهما، وفرس عَبْلُ الشوى أي: غليظ القوائم.

(٤) نزهة الأرواح (ص ٣٠٢).

ـ استطراد بذكر أبيات شعرية في الإعراض عن الجاهلين:

ومن شعر العلامة المُختار السوسي رحمه الله يدل على الحلم وينهى عن مجاوبة الجاهل السفيه:

أيّ عقل لعاقل قابل الـجا ... هل إنْ سامه انتقاصا بجهل
إنما العقل أن يقابل ذو جهـ ... ـل بحلم وذو انتقاص بفضل
لا سَمَتْ نفسي الأبية إن أسـ ... ـففتْ يوما إلى تجاوب نذل[1]

وفي هذا المعنى أيضا قال الفقيه عمر بن مازوز بن جليل رحمه الله:

إذا سبّني وغْدٌ تزيدتُ رفعة ... وما العار إلا أنْ تراني أسابِبُهُ
ولو لم تكن نفسي عليّ كريمة ... لأمكنتها من كل وغد تُجاوبهُ
كفى حزنا لي أنّ وغدا مُخاطبي ... وبالوغد فخراً لو يراني نخاطبه[2]

وقال آخر:

شاتمني عبدُ بني مِسْمعٍ ... فصُنتُ عنه النفس والعِرضا
ولم أجاوبه احتقارا له ... ومن يَعضُّ الكلبَ إنْ عضّا ؟[3]

فالصبر على ما يصيب المرء من جهة أقاربه وغيرهم من أصناف الناس من شتم وسباب من أخلاق وطريقة أهل العلم والعقل والصلاح في كل زمن.

---

(١) معتقل الصحراء (١/ ١٤٢).

(٢) عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب (١ / ١٣٢).

(٣) أخبار أبي تمام (ص ٤٥).

خاتمة

فما أحلى هذه الحكايات وكمْ فيها من الفوائد والحِكم الغاليات.

ولا يَحسبن المُقْدم على الزواج أنّ الحياة الزوجية ستكون كلها عسل، بل لا بُد فيها من المدّ والجزر، فعلى مُريد التزويج أنْ يُوَطّن نفسه على الصّبر، ويتجمل بمثل أخلاق هؤلاء الأنبياء والسادة النبلاء الذين هم نُخبة بني الإنسان إذا لحقه ما لحِقهم، ولا يتسرّع بإلقاء كلمة الطلاقِ فيهدْم أسرة لأجل كلمة صدرت في لحظة غضب أو بسبب غيرة[١].

شعر:

عليـك بأخـلاق الكـرام فإنهـا تُديم لك الذكر الجميل مع النعم

ومِنَ الطريفِ قول الإمام الشافعي نوّرَ الله مَرْقده: «أقمتُ أربعين سنة أسأل إخواني الذين تزوجوا عن أحوالهم في تزويجهم، فما مِنهم أحدٌ قال: إنه رأى خيراً»[٢].

وقوله أيضاً عليه الرحمة والرضوان: «سمعتُ بعض أصحابنا ممّن أثق به قال: تزوجت لأصُون ديني، فذهبَ ديني ودين أمّي ودين جيراني»[٣].

---

(١) لبعض الأزواج في أسباب تطليقهم لنسائهم حكايات غريبة، ومِن أغرب ما سمعت في سبب تطليق بعضهم لزوجته، أنها ولدت له في الليل، فطلقها، فعوتب وسئل عن السبب ذلك ؟ فأجاب: ألَمْ تجد وقتا تلدُ لي فيه سوى الليل ؟!

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي (٢ / ١٩١).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٩٢)

وَليْتَ من لم يكن قادرا على الحِلم والتحمّل قال مثل قولة التابعي الجليل بكر بن عبد الله المزني(١) لامرأته: «لولا أني أخاف أن تقولي ما فيّ، لقلتُ ما فيك»(٢)، فلم يُنفذ غيظه في أهله، وصان بيته، وحافظ على رباطِ الزوجية.

وليتَ مَن غضبَ زوجها حالفتِ الصّمت والسُّكوت إلى أن تخمد شرارة غضبه، وقالت كما قالت تلك المرأة التي أراد الإمام شعيب بن حرب أن يتزوجها «فقال لها: إنّي سيء الخُلق، فأجابته: أسْوأ منك مَن يُحْوجك إلى أن تكون سيء الخلق»(٣).

وعمِلتْ بقول الإمام أبي الأسود الدؤلي لزوجته ـ وهما بيتان كان الإمام الشافعي مُعجباً بهما(٤):

خذي العفـو منّي تستديـمي مودّتــي ... ولا تنطقي في سَوْرتي حين أغضبُ

فإني رأيتُ الحبّ في الصّدر والأذى ... إذا اجتمعـا لـم يلبثِ الحـبّ يذهبُ

إذنْ لدامَ لها وُدّ زوجها، وأرضتْ ربّها، ونالتْ ثواب الصّابرات.

جعل الله بيوت المسلمين مستقرات يتزود فيها الأزواج والأبناء الرحمة واللطف والصفاء، ويُتعلم فيها حُسن العشرة والمودة وكمال الأخلاق.

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليماً كثيراً

---

(١) من علماء التابعين، كان مجاب الدعوة، توفي رحمه الله سنة١٠٦ هـ، وقيل سنة ١٠٨هـ. ترجمته في: صفة الصفوة (٢/ ١٤٦ رقم: ٥٠٥).

(٢) الزهد للإمام أحمد (ص ٣٦٧ ح ١٨٣٤).

(٣) أخبار الظراف والمتماجنين (ص ١٤٧).

(٤) ذكر ذلك الإمام البيهقي في: مناقب الشافعي (٢/ ٩٨).

فهرس المصادر والمراجع

١- أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي المعافري، تحقيق: محمد عبد القادر غطا، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٢- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، تصحيح:عبد المعطي قلعجي، دار صادر، الطبعة الأولى: ٢٠٠٠م.

٣- أخبار أبي تمام لمحمد بن يحيى الصولي، تحقيق: خليل محمود عساكر، ومحمد عبده عزام، ونظير الاسلام الهندي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٤- أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزي الحنبلي، بعناية: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٥- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام للعباس بن إبراهيم، المطبعة الملكية، ١٩٧٥م.

٦- الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري ليحيى بوعزيز، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٣م.

٧- أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ القسنطيني، بعناية: محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس.

٨- البداية والنهاية لابن كثير، تخريج: أحمد شعبان بن أحمد، ومحمد بن عيادي بن عبد الحليم، مكتبة الصفا، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٩- بشور الهدية في مذهب الصوفية المعروف برسائل مولاي العربي الدرقاوي، لمولاي العربي الدرقاوي، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

١٠- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان.

١١- تاريخ الإسلام للذهبي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٢- تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب لعبد الحي الكتاني، ضبط وتعليق: أحمد شوقي بنين وعبد القادر سعود، المكتبة الحسنية، الرباط، الطبعة الثانية: ٢٠٠٥م.

١٣- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٤- التأليف ونهضته بالمغرب لعبد الله الجراري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

١٥- التخلق بصفات الرحمن للعز بن عبد السلام السلمي، تحقيق: عرفان العشا حسونه الدمشقي، دار الفكر، الطبعة الأولى: ١٤٢٦-١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

١٦- تذكرة الحفاظ للذهبي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

١٧- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض، ضبط وتصحيح: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١٨- التشوف إلى رجال التصوف لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، تحقيق: أحمد توفيق، الطبعة الثانية: ١٩٩٧م.

١٩- تعريف الخلف برجال السلف لمحمد الحفناوي، تحقيق: حمزة خير الدين شترة، دار كردادة، الطبعة الأولى: ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

٢٠- تنبيه الغافلين، وبهامشه بستان العارفين، لأبي الليث السمرقندي.

٢١- تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر للشعراني، وضع حواشيه: عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٢٢- الجامع الصغير للسيوطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢٣- جامع كرامات الأولياء للإمام يوسف النبهاني، المكتبة العصرية، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٤- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية، طبعة: ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٢٥- الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية لعبد الغني النابلسي، مكتبة الحقيقة، ١٤١٤/ ١٩٩٤.

٢٦- الحلم لابن أبي الدنيا، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن.

٢٧- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة: ١٤٠٥هـ.

٢٨- خواطر دينية وبحوث غالية وقطوف دانية في مسائل فقهية وفوائد عالية لعبد الله بن الصديق الغماري، طبع ونشر دار الفرقان، الدار البيضاء.

٢٩- الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والاسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٣٠- الديباج المذهب معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٣١- ديوان امرؤ القيس، بعناية وشرح:عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤ م.

٣٢- ديوان علقمة بن عبدة، شرح: سعيد نسيب مكارم، دار صادر، ١٩٩٦م.

٣٣- ذكريات من حياتي لعبد الله التليدي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٣٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الآلوسي، إدارة الطباعة المنيرية دار إحياء التراث العربي.

٣٥- الزهد للإمام أحمد تحقيق: حامد أحمد الطاهر البسيوني، دار الحديث، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٣٦- زهر الأكم في الأمثال والحكم للحسن اليوسي، تحقيق: محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الثقافة، الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٣٧- سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام لمحمد بن الأمير الصنعاني، تحقيق وتخريج: محمد صبحي حسن حلاق، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية: ١٤٢١هـ.

٣٨- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس لمحمد بن جعفر بن ادريس الكتاني، تحقيق: عبد الله الكامل الكتاني وحمزة بن محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، دار الثقافة، الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٣٩- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، تحقيق: شعيب الأناؤوط وغيره، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٤٠- السيرة الذاتية للعلامة رضى الله محمد المختار السوسي، جمع واقتباس رضى الله عبد الوافي المختار السوسي، مطبعة المعارف، الرباط، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٤١- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف، دار الفكر.

٤٢- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٤٣- شرح شرعة الإسلام لسيد علي زاده، در سعادت، ١٣١٥ هـ.

٤٤- صحيح الإمام مسلم بشرح الإمام النووي، تخريج: محمد عبد العظيم، دار التقوى.

٤٥- صديقون للمختار محمد التمسماني، دار ابن حزم ومركز التراث الثقافي المغربي، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٤٦- صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، ١٤٢١ / ٢٠٠٠.

٤٧- صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر لمحمد بن الحاج الصّغير الإفراني، تحقيق:عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى:١٤٢٥ / ٢٠٠٤.

٤٨- صيد الخاطر لابن الجوزي الحنبلي، تحقيق: محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٤٩- طبقات الحضيكي لمحمد بن أحمد الحضيكي، تحقيق: أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٥٠- طبقات الحنابلة للقاضي ابن أبي يعلى الفرّاء، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٥١- طبقات الشاذلية الكبرى، لمحمد بن قاسم كوهن الفاسي، وضع حواشيه: مرسي محمد علي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية: ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٥٢- الطبقات الكبرى للشعراني، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٥٣- طبقات النحويين واللغويين لمحمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف.

٥٤- عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب لمحمد النيفر، المطبعة التونسية، الطبعة الأولى: ١٣٥١هـ.

٥٥- العيال لابن أبي الدنيا، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٥٦- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمسلسلات لعبد الحي الكتاني، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي.

٥٧- الفهرسة لابن عجيبة، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، دار الغد العربي، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٥٨- فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان لمحمد غريط، تحقيق: عبد القادر سعود وعبد المجيد خيالي، دار الأمان ودار ابن حزم، الطبعة الأولى:١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٥٩- قلائد الجواهر في مناقب تاج الأولياء ومعدن الأصفياء وسلطان الأولياء الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلاني للعلامة محمد بن يحيى التادفي الحنبلي، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٦٠- قيمة الزمن عند العلماء لعبد الفتاح أبو غدة، بعناية سلمان عبد الفتح أبو غدة، دار السلام، الطبعة الثانية: ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

٦١- كتاب تهذيب جامع الإمام أبي عيسى الترمذي للشيخ عبد الله التليدي، دار الفكر، ١٩٩٥.

٦٢- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٦٣- لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية للشعراني، ضبط وتصحيح:عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٦٤- ما يجوز وما لا يجوز في الحياة الزوجية لعبد العزيز بن الصديق الغماري، البوكيلي للطباعة والنشر والتوزيع، المغرب، الطبعة الرابعة ٢٠٠٣.

٦٥- ما يجوز وما لا يجوز في الحياة الزوجية لعبد العزيز بن الصديق، البوكيلي للطباعة، الطبعة الرابعة.

٦٦- مجلة أمل، العدد الخامس، السنة الثانية، ١٩٩٤.

٦٧- محاسن الإسلام وشرائع الإسلام لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن البخاري، دار الكتب العلمية.

٦٨- المحدث الحافظ أبو شعيب الدكالي لعبد الله الجراري، الشركة الجديدة دار الثقافة، الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٦٩- المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي لأحمد بن الصديق الغماري، دار الكتبي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.

٧٠- المستطرف في كل فن مستظرف لمحمد بن احمد الأبشهي، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، سنة: ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٧١- المستطرف من أخبار الجواري للإمام السيوطي، مكتبة الثرات الإسلامي، تقديم وتعليق: أحمد عبد الفتاح تمام.

٧٢- مسند عبد الله بن المبارك، ومعه البر والصلة له، تحقيق: مصطفى عثمان محمد، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٧٣- المصنف لعبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٧٤- المطرب بمشاهير أولياء المغرب لعبد الله التليدي، دار الأمان، الطبعة الرابعة: ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٧٥- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لعبد الرحمن الدباغ، تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٧٦- معتقل الصحراء لمختار السوسي، مطبعة الساحل، الرباط، الطبعة الأولى: ١٩٨٢م.

٧٧- المعزى في أخبار أبي يعزى لأبي العباس أحمد بن أبي القاسم بن محمد بن سالم بن عبد العزيز الشعيبي الهروي الشاذلي التادلي.

٧٨- ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع لمحمد المهدي الفاسي، تحقيق:عبد الحي العمروي وعبد الكريم مراد، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٧٩- مناقب الشافعي للبيهقي، تحقيق أحمد صقر، مكتبة دار التراث، الطبعة الأولى: ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٨٠- منطق الأواني بفيض تراجم عيون أعيان آل الكتاني لمحمد حمزة الكتاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٨١- المنن الكبرى للشعراني، بعناية: سالم مصطفى البكي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٨٢- المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد لعبد الرحمن العليمي، تحقيق: محب الدين عبد الحميد، مطبعة المدني، الطبعة الأولى: ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

٨٣- نزهة الأرواح وروضة الأفراح في تاريخ الحكماء والفلاسفة لشمس الدين محمد ابن محمود الشهرزوري، تعليق وتصحيح: خورشيد أحمد، حيدر آباد الدكن، الهند، الطبعة الأولى: ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

٨٤- نساء الخلفاء لابن الساعي، تحقيق: مصطفى جواد، دار المعارف، مصر.

٨٥- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ١٤٠٨ / ١٩٨٨.

٨٦- نكت الهميان في نكت العُميان لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، المطبعة الجمالية بمصر، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.

٨٧- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت.



فهرس المحتويات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

* * *